رحلات المستشرقين بين الجاسوسية والموضوعية والعبودية
بالتركيز على رحلة جان كلود جارسان J. C. Jarsan
وطريق الحج قوص – عيذاب

د. أبوبكر حسن علي بخيت *

مستخلص الورقة:

تهدف هذه الورقة إلى بيان الدراسات الاستشراقية التي اهتمت بالحج؛ كونه ركناًمن أركان الإسلام، وبما يختزنه من عناصر الوحدة، وحدة المكان، والوجدان، والزمان، يقوي من عضد العالم الإسلامي، وتماسك مكوناته، وجمع صفه، وتوحيد نسيجه، عنصراً يغض مضجع الغرب الرامي للاحتلال، ونهب ثروات العالم الإسلامي، ولمزيدٍ من التبعية. لذا توالت رحلات المستشرقين الاستخبارية وغير الاستخباراتية للأراضي المقدسة، وقدموا وصفاً دقيقاً لها، من حيث الحياة الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية. وفي هذا السياق، وعلى سبيل المثال، يشير المؤرخون والمؤلفون الأوربيون، إلى أن الرحالة المستشرق فارتيما كان يعمل تحت خدمة الاحتلال البرتغالي، وهو الجناح البري لجهود البرتغاليين، في كشف ثروات الشرق عامة، وجهودهم، كذلك لتطويق العالم الإسلامي، استمراراً لما كانوا يسمونه حرب الاسترداد، كما يؤكد الباحثون أن المعرفة تؤثر على السلطة، وبالتالي فإن السلطة توظّف المعرفة؛ لتحقيق السيطرة وضمان المصالح فكانت هذه الدراسات من أهم الروافد التي أثرت الخيال الأوربي، عن حياة المسلمين بصورة خاصة، والشرق.

ركزت الورقة على رحلة المستشرق الفرنسي جان كلود جارسان، لنيل درجة الدكتوراة في جامعة السوربون، عن مدينة قوص في العصور الوسطى، وفيما بعد نشر دراسته في كتاب وسمه بـ :"**قوص ازدهار وانهيار حاضرة مصرية**" يقدم فيه وصفاً لطريق قوص –عيذاب، وهو بالتالي، يسبح في ذات التيار، الذي اختطه الاستشراق الفرنسي الوصفي، الساعي للتوسع والاستعمار، الذي قام على التفاعل، والتدافع، والمغالبة، والهجمة الشرسة على الشرق.

لإخضاع هذه الدراسات، لموازين البحث العلمي، سيقوم الباحث من خلال المبحث الأول؛ بتصنيف رحلات حج المستشرقين، من نواحي الجاسوسية والموضوعية والعبودية، بذكر نماذج لكل. وفي المبحث الثاني، سيركِّز الباحث على رحلة المستشرق الفرنسي جان كلود جارسانJan Coulde Jarsan، ووصفه لطريق قوص – عيذاب من خلال كتابه: قوص ازدهار وانهيار حاضرة مصرية. كما أن الورقة ستوضح الوسائل التي اتبعها المستشرقون لمحاربة الحج.

* ( ) استاذ مساعد ، جامعة إفريقيا، مركز البحوث والدراسات الإفريقية.

مقدمة:

اهتم الغربيون بالعالم الإسلامي، وأصبح يطلق عليه الشرق، ومن يقوم بدراسته يعرف بالمستشرق، وبات هذا النوع من الدراسات يعرف بعلم الاستشراق؛ وذلك للعديد من الأهداف والغايات، منها المغرض المشبوه، ومنها ما يقوم على خلفية علمية موضوعية، ليس من ورائها أغراض مشبوهة.

منذ القدم عرف المستشرقون قدر الحج، ومكانته في نفوس المسلمين، وأثره في الكبير في جمعهم وحشدهم على صعيد واحد، مما ينعكس على وحدتهم، وإعلاء كلمتهم، وزيادة قوتهم، وبسط نفوذهم، وفي هذا السياق يقول المستشرق الأمريكي :" في الواقع ليس من دين في الدنيا؛ جامع لأبنائه بعضهم مع بعض، موحد لشعورهم، دافع بهم نحو الجامعة العامة، والاستمساك بعروتها كدين الإسلام.. وعلى اختلاف أجناس المسلمين واتساع آفاق بلادهم، لم نسمع قط أن شعبًا قليلاً أو كثيرًا اعتنق الإسلام دينًا ثم ارتدَّ عنه.." إلى أن يقول: "إن الوحدة الإسلامية إنما هي قائمة على ركنين هما أساسها ولا ثالث لهما: الحج إلى بيت الله الحرام، والخلافة. وقد غلب على رأي الكثير من رجال الغرب وهم في هذا الموضوع، فهم ما برحوا يخالون الخلافة لا الحج العامل الأكبر والأشد، الذي بسببه يتشارك المسلمون ميولاً وعواطف، تشاركًا مؤديًّا إلى اعتزاز الوحدة، وازدياد منعتها، وامتدادها، وانتشارها، على أن هذا لمن الوهم الصرف، فالأمر حقًّا على الضد منه"[٢] وهو – الحج– يمثل خطراً على الأوربيين، وعلى دينهم وثقافتهم ومخططاتهم الاستعمارية التوسعية، وأن العلاقة بين الشرق والغرب قد قامت على الاستعلاء العنصري للغرب، ودونية الشرق، وعلى العداء الديني، ورفض الإسلام بديلاً للنصرانية في الشرق وغيره، وحماية النصارى الشرقيين من الإسلام. يقول مراد هوفمان [٣] **Murad Wilfried Hofmann**:"إن الغرب يتسامح مع كل المعتقدات والملل، حتى مع عبدة الشيطان، ولكنه لا يُظهر أي تسامح مع المسلمين، فكل شيء مسموح إلا أن تكون مسلماً"[٤]. سيقوم الباحث من خلال هذه الورقة، وعبر المبحث الأول منها بتناول هذه الدراسات، التي من أجلها، تكبد المستشرقون وعثاء السفر، وبعد الطريق، وسوء المنقلب في المال، والأهل والولد، ولكن الدافع كان أكبر، لنهب الثروات والاحتلال، مستفيدين من صورة الإسلام المشوهة لدى الغرب.

المبحث الأول

تصنيف رحلات حج المستشرقين

أثبت البحث العلمي أنَّ هناك علاقة قوية بين كل من الاستشراق والاحتلال، ذلك أن الاحتلال قد أفاد كثيراً من الاستشراق، واستخدام بعض المستشرقين مساندين للمحتلين في وجوه:–

---

(١) لوثروب ستودارد ،حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض، تقديم أشكيب أرسلان، دار الفكر، بيروت – لبنان،(د. ط) (د.ت)، ص:١/٣٨٣.

(٣) سياسي ألماني، من جامعة هارفرد، شغل منصب سفير بلده لدى الجزائر، دخل في الإسلام، وبعد إسلامه ابتدأ مسيرة التأليف ومن مؤلفاته، كتاب: يوميات مسلم ألماني، والإسلام عام ألفين، وكتاب الإسلام كبديل، الذي أحدث ضجة كبيرة في ألمانيا.

(٢) مراد هوفمان، الإسلام كبديل، ترجمة عادل المعلم، دار الشروق، القاهرة – مصر، ط، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م، ص:٧٣.

١. أن المستشرقين قد استخدموا مستشارين في وزارات الحربية، وكانت هنالك وزارات للاحتلال. وكانت بعض المستشرقين موظفين في هذه الوزارات في وظائف استشارية.
٢. أن بعض المستشرقين قد رافقوا المحتلين في حملاتهم الاحتلالية، وأعانوهم على الوصول إلى المناطق التي عرفوها قبل وصول المحتلين إليها، بل إن من المستشرقين من صاغ البيانات الاحتلالية في البلاد العربية المحتلة وباللغة العربية، ومنهم من أذاع هذه البيانات الاحتلالية في الإذاعات الاحتلالية، التي قامت حال وصول المحتل إلى الأرض المحتلة.
٣. بعض المستشرقين كانوا قد سبقوا المحتلين إلى الأراضي التي سيطر عليها المحتلون، بل منهم من ولد في هذه الأراضي، لا سيما في الشمال الإفريقي[٥].
٤. بعض المستشرقين عملوا كقواعد معلومات، يستهدي بهم المحتلون من دون أن يكونوا بالضرورة جميعهم عاملين متفرغين في تلك الوزارات.
٥. الاستشراق كان دافعاً قوياً للاحتلال، بما قدمه من معلومات سابقة، لم تكن مقصودة بالضرورة لغرض احتلالي بعينه، ولكنها كانت معلومات جاهزة.

وفي هذا السياق المتصل بالاستعمار، المرتكز على دراسات المستشرقين، ما يعبر عنه المستشرق الهولندي سنوك هرجرونيه **Christain Snouck Hurgronje** عن ضرورة الاستشراق للاستعمار فيقول:" إن الشريعة الإسلامية موضوع مهم للدراسات الاستشراقية، ليس فقط لأسباب تجريدية نظرية متعلقة بتاريخ القانون والحضارة والدين، ولكن كذلك لأهداف عملية، وذلك كلما توثقت العلاقات بين أوربا والشرق الإسلامي، زاد عدد البلاد الإسلامية التي تقع تحت السيادة الأوربية، وزادت الأهمية بالنسبة لنا نحن الأوربيين لنتعرف على الحياة الفكرية، وعلى الشريعة، وعلى خلفية المفاهيم الإسلامية"[٦]. فيما يلي طائفة هذه الرحلات، التي قام بها هؤلاء المستشرقون، والطرق التي سلكوها للوصول لمبتغاهم، وتحقيق أهدافهم، مصنَّفة باعتبار الهدف والدافع وطريقة الوصول.

أولاً: الرحلات الاستخباراتية التجسسية :

يؤكد الباحثون أن المعرفة تؤثر على السلطة، وبالتالي فإن السلطة توظّف المعرفة[٧]؛ لتحقيق السيطرة وضمان المصالح. الإيمان بأن المعرفة قوة، قاد إلى الاهتمام بإقامة مراكز الأبحاث، القادرة على إنتاج المعرفة، وبالتالي أصبح من الطبيعي قيام تلك المراكز لغرض الكسب والحصول على القوة. ونعتقد بأن القوة تشارك في صنع السياسة.

توسعت الدراسات الاستشراقية الخاصة بالإسلام والعالم الإسلامي، وعلاقة هذه الدراسات بأجهزة المخابرات الغربية، تطورت هذه الدراسات، فأصبحت أهم الدراسات التي تتم تحتها عمليات الرصد وجمع

---

[٥] انظر : نجيب العقيقي، المستشرقون، دار المعارف، القاهرة – مصر. ط٥، ٢٠٠٦م، ١٢٥/٣.

[٦] أحمد عبد الحميد غراب، رؤية إسلامية للاستشراق، سلسلة كتاب المنتدى، إصدارات المنتدى الإسلامي، لندن – المملكة المتحدة، ط١، (د، ت)، ص:٤٢.

[٧] وفي هذا المنحى، سمَّى الكاتب الفلسطيني إدوارد سعيد، كتابه المشهور بـ " الاستشراق.. السلطة.. المعرفة" ؛ لما بين هذا الثالوث من ارتباط عضوي (الباحث).

المعلومات، والدرس والتحليل لكل ما يجري في هذه المنطقة، التي تعد أهم المناطق، إن لم تكن أهمها جميعاً، وقد استمر التطور في الدراسات الاستشراقية، وتوسع بشكل هائل، وبخاصة في أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية، وزاد عدد المتفرغين لهذه الدراسات زيادة هائلة في الجامعات الأمريكية وكندا، فقفز عددهم من ٣٦٣ عام ١٩٦٩م إل ٦٧٠ عام ١٩٨٦م.

تتعاون المخابرات الغربية بوجه عام، والمخابرات الأمريكية على وجه الخصوص، تعاوناً وثيقاً، مع مراكز الدراسات الاستشراقية، وخاصة مع دراسات الشرق الأوسط. وقد كشفت العديد من الوثائق، أن المستشرق الأمريكي، نادان سفران مدير مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة هارفارد، قد تلقى مبلغ ٤٥ ألف دولار من المخابرات الأمريكية، لمؤتمر دولي عن الأصولية[٨].

كما كشفت وثائق تفيد بأن، بعض أساتذة الجامعات الأمريكية المشهورين، هم أعضاء وخبراء في المخابرات الأمريكية، ومن هؤلاء المستشرق ريتشارد ميتشل **Richard Mitchell**[٩]، والفرد كانتول سميث**Wilfred Cantwell Smith**[١٠]، وغيرهما كثير[١١].

ومن أشهر من درس الحج، المستشرق الهولندي سنوك **Christiaan Snouck Hurgronje**الذي سافر إلى مكة، وأعد رسالة للدكتوراة عن "الحج"، تحت عنوان "أصل الحج في الإسلام" خط المستشرق الهولندي فنسنك vensinek[١٢] كتابه ومن المستشرقين الذين تناولوا الحج في معرض حديثهم عن الإسلام المستشرق الفرنسي هنري ماسيهHenri Massé[١٣] في كتابه الإسلام.

كما، وفي هذا المنحنى، توالت رحلات المستشرقين الاستخباراتية وغير الاستخباراتية للأراضي المقدسة، وقدموا وصفاً دقيقاً لها، من حيث الحياة الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وعلى سبيل المثال لا الحصر، يحتوي كتاب أوغست راليA.Ralli الموسوم: المسيحيون في مكة Christains at Mecca على عرض شائق لانطباعات رحالة أوربيين، زاروا هذه المدينة المقدسة، بدءًا من سنة ٩٠٩هـ- ١٥٠٣م، وانتهاء بسنة ١٣١٢هـ-١٨٩٤م. ومثله كتاب البرخت زيمةB.Zima الموسوم "شبه

٨أحمد عبد الحميد غراب، مرجع سابق، ص : ١٤٥.

٩ريتشارد ميتشل ولد في ٢٩ أبريل – وتوفي في ديسمبر ، عمل استاذاً في كلية جلاسبورج، له مجموعة من الكتب المنشورة، على رأسها كتابه عن الاخوان المسلمين، بعنوان "الإخوان المسلمين ... دراسة أكاديمية دفاتر التاريخ العربي، ترجمة:عبد السلام رضوان،مراجعة:فاروق عفيفي عبد الحي،تقديم:صلاح عيسى".

١٠سميث الفرد كانتول: ولد عام ١٩١٦م في مدينة تورنتو بكندا، وتخرج باللغات الشرقية في جامعة برنستون، وحصل على درجة الدكتوراه عام ١٩٤٨م، تلقى تعلميه، بالكليا العليا بتورنتو، وجامعة كمبيردج، عمل استاذاً للأديان، ورئيس قسم الدين بجامعة داهوسي، واستاذاً مديراً مركز دراسات الأديان بجامعة هارفرد ١٩٦٤-١٩٧٣م. (نجيب العقيقي، مرجع سابق، ١٨٢/٣).

١١أحمد عبد الحميد غراب، مرجع سابق، ص : ١٤٥.

١٢أرند جان فِنْسِنْك (١٢٩٩ – ١٣٥٨ هـ / ١٨٨٢ – ١٩٣٩ م) هو مستشرق هولندي. تتلمذ على يد المستشرق هوتسمان، ودي خويه، وسنوك هورخرونيه، وسخاو .حصل على الدكتوراه في بحثه (محمد واليهود في المدينة) عام ١٩٠٨. بدأ في عمل معجم مفهرس لألفاظ الحديث الشريف مستعيناً بعدد كبير من الباحثين، وتمويل من أكاديمية العلوم في أمستردام، ومؤسسات هولندية وأوروبية أخرى. وأصدر كتاباً في فهرسة الحديث، ترجمه فؤاد عبد الباقي بعنوان (مفتاح كنوز السنة) أشرف على طباعة كتابات سنوك هورخرونيه في ستة مجلدات. له مؤلفات عديدة منها كتاب في العقيدة الإسلامية نشأتها وتطورها التاريخي.

١٣هنري ماسيه ١٨٨٦م- ١٩٦٩م، هو مستشرقفرنسي، متخصص في الفارسية، عمل مديرًا للمعهد الفرنسي بالقاهرة، وعين أستاذًا في جامعة الجزائر (١٩١٦-١٩٢٧)، وعضوًا في المجمع العلمي العربي بدمشق.

الجزيرة العربية في كتابات الرحالة الغربيين في مئة عام: ١٧٧٠– ١٨٧٠م" الذي يحوي مختصرًا لبعض الرحالة الذين زاروا الحجاز، وكتبوا عن، دينه، وثقافته، وعاداتهم، مدنه، وغيرها[١٤].

لا يعرف على وجه الدقة، تاريخ بداية وصول الرحالة الغربيين إلى بلاد الحجاز، وهناك على كل حال احتمال أن بعض البحارة الأوربيين، وعلى وجه الخصوص البرتغاليين، قد وصلوا إلى ساحل البحار التي تحيط بالجزيرة العربية. هناك إشارات مقتضبة في أدبيات الرحلات الغربية إلى الجزيرة العربية. لأن القبطان والرحالة جون كابوتJohn Cabot ، الذي يقال إنه زار مكة بين سنتي ٨٨١ – ٨٩٦هـ الموافق ١٤٧٦ – ١٤٩٠م، وربما طاف سواحل البحر الأحمر الشرقية، ويُنسب إليه اعتقاده أن جزيرة العرب غير معروفة، لذا أطلق عليها اسم الأرض الجديدة، وأعلن عن ضمها لممتلكات الملك هنري السابع. وكذلك البحار البرتغالي جريجوري كوادرا Gregeory da Quadra الذي صحب حجاج زبيد باليمن إلى مكة المكرمة، في حوالي عام ٩٠٦هـ– ١٥٠٠م، وفي المدينة المنورة أصابت جريجوري لوثة مشوبة بعاطفة دينية، فأخذ يصيح بأعلى صوته شاتماً النبي صلى الله عليه وسلم[١٥]. مما يدلل على ما يضمره هؤلاء المستشرقين في نفوسهم، وتتقيح به صدورهم. وفيما يلي طائفة من أهم رحلات المستشرقين الاستخباراتية[١٦]:

١. رحلة لودفيكو فارثيما Ludovico di Varthema[١٧]:

أشار المؤرخون والمؤلفون الأوربيون، إلى أن فارتيما كان يعمل تحت خدمة الاحتلال البرتغالي، وهي الجناح البري لجهود البرتغاليين، في اكتشاف ثروات الشرق عامة، والهند خاصة، وجهودهم كذلك لتطويق العالم الإسلامي، استمراراً لما كانوا يسمونه حرب الاسترداد[١٨]. بتعاون كنسي كبير، على رأسه كنيسة روما، والقوة البرتغالية أرسلت كنيسة روما لودوفيكو دي فارتيما، الذي غير اسمه، إلى لويس

١٤انظر : ألبرخت زيمه، شبه الجزيرة العربية في كتابات الرحالة الغربيين في مائة عام "١٧٧٠–١٨٧٠م" ترجمة غازي عبد الرحيم شنيك، ط١، ١٩٩٩م، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ص: ٨٩.

[١٥]انظر: المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية، اختيار وتهذيب وفهرسة: محمد بن حسن عقيل موسى الشريف، دار الأندلس الخضارء، جدة – المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م، ٢٤٣/١

[١٦]المرجع السابق نفسه والصفحة.

[١٧]إيطالي ولد في مدينة بولونيا، ورحل منها إلى البندقية، كان والده طبيباً، وقيل عسكرياً، تعرض كثير من المؤرخين لسيرته وحياته، فلم يكن يعرف منها الكثير، سوى ما قاله المستشرق بيرسي بادجر:" إن معظم ما نعرفه عن فارتيما ما ذكره فارتيما عن نفسه، وفي موسوعة التراجم العالمية في القديم والحديث والمطبوعة في باريس سنة ١٨٧٢م، نجد نصاً فرنسياً نعرف منه أن رحالة إيطالي، قام برحلة في القرن السادس عشر الميلادي دون تحديد السنة، وهي رحلة مهمة جداً للمشتغلين بتاريخ الجغرافيا. أما المؤلف الإيطالي زورلا، لم يذكره ضمن أشهر الرحالة الإيطاليين. أما المؤرخ فانتوزي فلم يتعرض لفارتيما، إلا من خلال أسطر قلائل شكى في مطلعها من قلة المعلومات عنه، وأنهاها بالتشكك في عودته إلى إيطاليا،وتفسير ذلك إلى أن فارتيما لم يكن فيه من إيطاليا سوى أنها موضع مولده، ومصدر لغته، أما فيما عدا ذلك، فالرجل كان يعمل لحساب ملك البرتغال، الذي مول رحلته، والذي قدم له نائبه في الهند براءة الامتياز والفروسية، وضمه لجيوشه المحاربة أحياناً، لذا فبعض المصادر تشير إليه على أنه رحالة برتغالي، تماماً مثل كولوبس الذي تعارف الناس على أنه إسباني مع أنه من أصول إيطالية. (انظر: الحاج يونس المصري، رحلة فارتيما، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب،مصر – القاهرة، ط١، ١٩٩٤، ص : ١٠).

[١٨]المرجع نفسه، ص: ٩.

فارتيما، في بعض المهمات الاستخباراتية في شبه الجزيرة العربية، فخرج إلى مدينة البندقية، ثم القاهرة في أواخر ديسمبر ١٥٠٢م.

تعد رحلة فاديكو فارتيما، في طليعة الرحّالة الغربيين الذين زاروا الحجاز، ٨٦١ – ٩٣٢ هـ– ١٤٥٦ – ١٥١٧م، الذي وصلها مع قافلة حجاج دمشقية، التي توثقت علاقته مع أحد مسؤولي القافلة، وتحت الرشوة، وأساليب أخرى، استطاع أن يجد لنفسه وظيفة حارس مملوكي للقافلة. وتحت مسمى الحاج يونس المصري، قدم فارتيما نفسه لأهل الحجاز واليمن وسكان الخليج وبلاد فارس، باعتباره الحاج يونس المصري، أو يونس المملوك المصري، أما في بلاد الهند، فقدم نفسه باعتباره الحاج يونس العجمي من بلاد فارس، بل أحيانا كان يقدم باعتباره صوفياً ودرويشاً، يقبلون يديه وركبتيه، التماساً للبركة[١٩].مكث في مكة المكرمة عدة أسابيع ووصفها. وقال: "إنها تضم ٦٠٠٠ أسرة، وتحدث عن شح المياه فيها، وشبه المسجد الحرام بالكوليزيومColloseum في روما، ووصف مناسك الحج والتطهر بماء زمزم، وتحدث عن المدينة المنورة وجدة، ووصف الحياة المعيشية فيهما"[٢٠].

٢. رحلة دومينجو باديا لبليخ Domingo Badia Y Lebich :

جاء لبليخ إلى الحجاز متظاهرًا بالإسلام، وسمى نفسه علي بك العباسي، وادعى أنه من سلالة بني العباس. يرجع أصل لبليخ إلى مدينة بلنسية الإسبانية. ولا شك أنه كان يعمل لصالح نابليون إمبراطور فرنسا. وصل لبليخ مكة المكرمة عام ١٢٢٢هـ–١٨٠٧م. كانت كتابات لبليخ مفعمة بالحيوية. وهو أول من نقل للغرب فكرة منظمة وصحيحة عن مناسك الحج، وعن مكة المكرمة، بل هو أول من حدد موقع مكة المكرمة، تحديدًا دقيقًا مستعينًا بأجهزة رصد فلكية. كما أنه الأوروبي الوحيد الذي تمكن من دخول جوف الكعبة، حيث شارك شريف مكة المكرمة الشريف غالب في غسل الكعبة[٢١].يغلب على تقاريره عن الحجاز النزعة الروحية. ومن المهم الإشارة إلى أن لبليخ كان شاهد عيان على تقدّم القوات السعودية إلى مكة المكرمة. وتسنى له مشاهدة الجيش السعودي، وقائده الإمام سعود بن عبد العزيز ١٢١٨ – ١٢٢٩هـ الموافق ١٨٠٣ – ١٨١٤م، فوصفه ووصف حجاج نجد، ولاحظ حماسهم الديني، وبساطتهم، وقدّر عددهم بخمسة وأربعين ألفًا، وكان مأخوذًا بحسن أجسامهم، وعيونهم وأنوفهم المستقيمة. ولأن لبليخ يعمل لصالح فرنسا فقد دست له المخابرات البريطانية السم فمات سنة ١٢٣٣هـ– ١٨١٨م[٢٢].

٣. رحلة أولريخ جاسبر سيتزن Ulrich Jasper Seetzen[٢٣]:

---

[١٩]المرجع السابق نفسه والصفحة.

[٢٠]محمد بن حسن عقيل موسى الشريف، مرجع سابق، ٢٤٣/١.

[٢١]السنيدي، صالح بن محمد: رحالة أسباني في الجزيرة العربية، دار الملك عبدالعزيز، الرياض– السعودية، ط١ ١٤٢٩هـ، ص: ٩.

٢٢المرجع السابق نفسه، ص: ١٩.

٢٣أولريش ياسبر زيتسن 1811 – 1767م) هو مستشرقورحالة ألماني.سافر إلى مصر والحجاز واليمن. كما تعرف إلى همر . پورجشتالفي إستانبولعام ١٨٠٢م.من أهم آثاره «أشعار في سوريا وفلسطين وبلاد ما وراء الأردن، وبلاد العرب Arabia Petraea ومصر السفلى». نشر في برلين، ١٨٥٤م انظر : عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، دار الملايين، بيروت – لبنان، ط٣، ١٩٩٣م، ص:٣٣١.

هو رجل مخابرات ألماني، من إحدى الإمارات الألمانية، التي كانت تابعة لقيصر روسيا، ومن المتخصصين في اللغويات، وموسوعي الثقافة.

زار مكة المكرمة في عام ١٢٢٤هـ-١٨٠٩م، وقد كانت رحلته بدعم من قيصر روسيا، وكان يهدف من زيارة مكة؛ أن يحمل لقب حاج، ليستفيد منه في مهماته القادمة في آسيا وإفريقيا لصالح المخابرات الروسية. وقد تمكن سيتزن من الحصول على اللقب، بعد مشاق عسيرة، منها خضوعه لامتحان في المسائل الدينية.

٤. رحلة بوركهارت Gohann Ludwing Burckhart[٢٤]:

زار الرحالة السويسري جون لويس بوركهارت، مكة المكرمة والمدينة المنورة والطائف وجدة وينبع، وتجول فيها مدة من الزمن تبلغ عشرة أشهر، من منتصف سنة ١٢٣٠هـ- ١٨١٤م إلى الربع الأول من سنة ١٢٣١هـ-١٨١٥م[٢٥].

وصل بوركهارت جدة تحت اسم مستعار، هو إبراهيم بن عبدالله الشامي، ضمن قافلة من الحجاج النوبيين.

يقول الكولونيل ليك Leake عن بوركهارت ومؤلفاته: «لقد قدم بوركهارت للجمعية الإفريقية في لندن أدق المعلومات عن الحجاز، خاصة عن مكة والمدينة، على نحو لم يصل أبدًا إلى أوروبا قبل ذلك.

لقد مكنته معرفته باللغة العربية، وعادات المسلمين من الظهور بشخصية مسلم بنجاح كبير.

لقد أقام في مكة طيلة موسم الحج، وقام بأداء مناسك الحج، دون أن يثير أدنى شك حول حقيقة شخصيته».. قابل بوركهارت محمد علي باشا في الطائف، حيث كانت الجيوش المصرية تحارب في جبهات عدة، جيوش الدولة السعودية الأولى. ودوّن بوركهارت بشكل دقيق ملحوظاته عن الدعوة السلفية وأتباعها. قدّر بوركهارت الواقفين في صعيد عرفات بسبعين ألف حاج، يتكلمون أكثر من أربعين لغة.

٥. رحلة توماس كيث Thomas Kieth[٢٦]:

يُعد توماس كيث أحد المغامرين والمرتزقة، الذين شاركوا الحملة المصرية العثمانية معاركها في الحجاز.

٢٤ولد هذه الرحالة في لوزان في سويسرا، في عام ١١٩٨هـ - ١٧٨٤م، درس في جامعات ألمانية في لايبزج وجوتنجن وغيرها، هاجر في عام ١٨٠٥م إلى لندن بحثاً عن عمل، استقطبته مؤسسة تسعى لتطوير استكشاف إفريقيا، وقدمت له منحة لمدة عام كمبردج، تؤهله للقيام بهذه المهة، درس اللغة العربية وأطرافاً من علوم الصيدلة والكيمياء والفلك، والمواد التي يحتال بها المستكشفون الأوربيون للاختلاط بالأفارقة، ألف مجموعة من الكتب وهي : (١) رحلات في بلاد الشام. (٢) رحلات في بلاد النوبة.

(٣) ملاحظات على البدو الوهابيين. (٤) رحلات في شبه الجزيرة العربية. (انظر: عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، مرجع سابق، ص: ١٠٥ وما بعدها، بتصرف).

[٢٥] المرجع السابق نفسه: ١٩٠ – ١٩٥.

٢٦اسمه الحقيقي (توماس كيث -Richard Burton)وأصله أسكوتلنديمن إدنبرا تم أسره في أثناء الحملة الإنكليزية على مصر، تنكر باسم إبراهيم آغا وشغل منصب رئيس مماليك طوسون، وهو شابٌ في العشرين من عمره، وهو أحد الفارسين الذين ساعدوا طوسون بالصمود وتنظيم جيوشة، عندما تعرض فيها جيشة للإبادة في معركة وادي الجديدةمن قبل قبيلة حربالقوات النجدية.

كان توماس كيث يشغل رتبة ضابط في الفرقة الأسكتلندية، وهو من بقايا حملة نابليون على مصر. وكان توماس كيث خبيرًا في إدارة المعارك، ويتصف بالذكاء وحسن التدبير، لهذا عينه طوسون باشا في عام ١٢٣١هـ-١٨١٥م واليًا على المدينة المنورة، عندما غادرها على رأس الجيش إلى نجد. وبهذا التعيين يكون توماس كيث أول أجنبي غير مسلم يتولى إمارة المدينة[٢٧].

٦. رحلة ريتشارد بيرتونRichard Burton[٢٨]:

إيرلندي جاء إلى الحجاز برتبة ملازم، في الجيش الهندي، عام ١٢٧٠هـ-١٨٥٣م متنكرًا في صورة حاج من الهندمدعوماً من قبل الجمعية الجغرافية البريطانية، لغرض تقديم تقرير عن أحوال الحجاز، والمنطقة الواقعة بينه وبين مسقط من كافة الوجوه.

وكان الحجاز آنذاك يقع تحت سيطرة الدولة العثمانية. وكانت بريطانيا ترغب في معرفة المزيد عن الأماكن المقدسة؛ لتستخدمها في صراعها السياسي والاقتصادي مع الدول العثمانية. ولكن لسوء الحظ أو لحسنه، فإن التقارير التي كتبها بيرتون، وشكلت كتابًا كبيرًا، لم تكن ذات نفع كبير لحكومة بريطانيا، لأنها تقارير مشوشة، وغير دقيقة من الناحية السياسية[٢٩].وصف بيرتون المدينة المنورة، وعادات السكان، والحرم النبوي، وكان يستعين بآيات من القرآن والحديث الشريف. ثم عرج على مكة ووصفها، ووصف مناسك الحج، وكان في وصفه لتلك المناسك يصدر عن احترام للإسلام، وعن تدين[٣٠].

---

[٢٧] المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية، مرجع سابق، ٢٤٣/١.

[٢٨] ريتشارد فرانسيس بيرتون المولد في ١٢٦٣هـ الموافق ١٨٢١هـ، ولد لأب أيرلندي من أصل غجري، نشأ وترعرع في جنوب فرنسا، ثم توسكنيا في إيطاليا، التي هاجر إليها والده بعد أن ترك خدمة الجيش البريطاني، الذي أراد – والده- أن يهيئ ابنه لخدمة الكنيسة، فالتحق لكلية اللاهوت في العام ١٨٤٠م بجامعة أكسفورد، فنال فيها شهادة فقه النصرانية وآدابها. في مصر حينما وصل الإسكندرية عرف بأن عرب الحجاز لم يكن تلقى شخصية الفارسي إعجاباً، فأسقط اسمه الحركي ميرزا، واستبدله باللحاج عبد الله، درس بجامعة الأزهر، العلوم الدينية الإسلامية، وتتلمذ علي يد الشيخ محمد علي العطار. لخبرته بالتصوف التي اكتسبها بالهند انخرط في صفوف الطريقة القادرية حتى وصل لدرجة المرشد.(انظر : عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، روايات غربية في شبه الجزيرة العربية، دار الساقين بيروت – لبنان، ط١، ٢٠١٣م، ٢٠١٢م – ٢٦).

[٢٩] المرجع السابق: ٢/ ٣٣.

٣٠عبد الرحمن الشيخ، رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة – مصر، ط١، ١٩٩٤م.٣/.

٧. **رحلة ليون روش** Léon Roches[٣١]:

قضى روش ردحًا من الزمن مستشارًا للأمير الجزائري عبد القادر، ثم تظاهر بالإسلام، وقرر مغادرة الجزائر بعد قصة حب فاشلة، وبعد نشوب معركة بين الجزائريين والجيش الفرنسي، لا يستطيع معها حمل السلاح ضد مواطنيه.

وصل روش مكة في نهاية عام ١٢٥٧هـ-١٨٤١م في زي حاج مسلم، وتسمى باسم عمر بن عبدالله، ثم زار المدينة المنورة، وأعجب بالمسجد النبوي وفوانيسه، والكتابات المذهبة على الجدران. ثم عاد إلى مكة المكرمة، وبقي فيها أسبوعين، غادر بعد ذلك إلى الطائف لمقابلة الشريف، الذي أكرم مثواه، على أساس أنه عميل سياسي لفرنسا لا أكثر، وبحلول موسم الحج ذهب إلى مكة. وكانت تراوده فكرة التحول إلى الإسلام، لكنه بقي على دينه حتى وفاته[٣٢]. وفي جبل عرفات تعرف عليه بعض الجزائريين فصاحوا: النصراني.. النصراني، وشعر أن نهايته قد اقتربت، وإذا ببعض الجنود يقبضون عليه، ويقيدونه، ثم يضعونه على ظهر جمل، وعرف أخيرًا أن أولئك الجنود، هم من حرس الشريف، الذي بعثهم لتخليصه[٣٣].

رحلة هيرمان بكنيل Herman Bicknell[٣٤]:

جاء إلى مكة المكرمة الطبيب البريطاني في عام ١٢٧٩هـ-١٨٦٢م، كان بكنيل يعمل جراحًا في مستشفى سانت بارثولوميو بلندن. وكان يؤمن أنه من صالح الحكومة البريطانية، أن يلم الشعب البريطاني بالمعلومات الموثقة والواسعة عن الدين الإسلامي والمسلمين. ولن تأتي تلك المعرفة إلا عن طريق المشاركة في أكبر موسم يجمع المسلمين، وهو موسم الحج.لهذا تطوع الدكتور بكنيل بالقيام بالرحلة إلى مكة، وتنكر في صورة بريطاني مسلم، لذا لم يضطر لتغيير ملابسه. أنهى الدكتور بكنيل مناسك الحج، وأقام بمكة المكرمة، وقال:" إن المسجد الحرام يشبه القصر الملكي في باريس". ولم يذهب مع الحجاج الذين رافقهم إلى المدينة المنورة، بحجة أنه لا يستطيع مقاومة موجة الحر. وبعد عودته نشر

٣١ولد ليون روش (حاج عمر) في غرونيل – فرنسا في يوم ٢٧\٩\ ١٨٠٩م، ودرس في مدارس مدينة غرونيل، ثم في مدارس طولون، شارك والده الحملة العسكرية الفرنسية على الجزائر عام ١٨٣٠م، تعلم اللغة العربية على يد الشيخ عبد الرازق بن بسيط، خالط أهل الجزائر، في المقاهي، وجلسات المحاكم الشرعية، التحق بخدمة الأمير عبد القادر الجزائري، ولازمه في حروبه، وأصبح أحد كتابه الخاصين، وأرسله الامير إلى من يعلمه الدين الإسلامي، بعد أن أعلن إسلامه، وزوجه مسلمة، وفرنسية ١٨٣٩م، توترت العلاقة بين الأمير عبد القادر، وفرنسا، فهرب ليون روش، ورجع إلى قومه، بعد أن عرف أسرار الأمير، وأعلن أنه لم يكن مسلماً، وأصبح معروفاً،أنه كان يتجسس على الأمير،عمل في قنصلبات فرنسا، في كل من تونس والمغرب، واليابان، توفي في عام ١٩٠١م (انظر: ليون روش، اثنتان وثلاثون عاماً في رحاب الإسلام، ترجمة، محمد خير محمود البلقاعي، جداول للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠١١، ١/ ١٢ – ١٣) (بتصرف).

٣٢المرجع السايق نفسه، ص: ١٥.

٣٣المرجع السابق نفسه والصفحة.

٣٤يهرمان بيكنيل ١٨٣٠ - ١٤ مارس ١٨٧٥، بريطانيالجنسية، كان جراحاًومستشرقاًو لغوياً .ولد في هيرن هيل، ساري، إنجلترا، في ٢ أبريل ١٨٣٠، وتلقى تعليمه في باريس بيكنيل، هانوفر، وجامعة كوليدج في لندن، خدم في الجيش كمساعد جراح لمدة ست سنوات، عمل لأول مرة في هونغ كونغعام ١٨٥٥، ثم لمدة أربع سنوات في منيمار، لاهور، حيث درس هناك اللغات الشرقية. بعد عودته إلى إنجلترا في عام ١٨٦٠، عمل لفترة وجيزة في هيئة الدرشوت لكنه استقال في عام ١٨٦١م.

مقالاً مطولاً عن الإسلام، والمسلمين في جريدة التايمز عنوانه الحج إلى مكة، ووقعه باسمه الإسلامي المستعار: الحاج محمد عبد الواحد[٣٥].

٨. رحلة المستشرق الهولندي هورخورنيهChristain Snouck Hurgronje[٣٦]:

ليس من الرحالة الغربيين الذين أقاموا بالحجاز أو بمكة، من يدعي معرفتهما مثل ما يعرفهما الرحالة الهولندي كريستان سنوك هورخرونيه، فقد قضى فيهما أكثر من سنة، عام ١٣٠٣هـ – ١٨٨٥م. هورخرونيه من المتخصصين في اللغات السامية، وأطروحته للدكتوراه عن أصول الحج، ومن عجائب طرقه للحصول على المعلومات، هي الارتباط بزيجة في البلد الذي يقيم فيه، لهذا تزوج في مكة المكرمة امرأة من جاوا، وعن طريقها استطاع معرفة معلومات عن المجتمع وعاداته، لا يمكن الوصول إلى معرفتها من دون تلك الزيجة، مثل وصف الزواج في مكة، ووصف العروس، بل أخذ صورة شمسية لها، وليس من المستبعد أن زواجه من سيدة جاوية؛ هو لمعرفة المزيد عن الجالية الجاوية في الحجاز، ولمعرفة ارتباطهم بإندونيسيا التي خضعت للاستعمار الهولندي في ذلك الوقت، اهتم هورخرونيه بدراسة العادات في الحجاز، خاصة ظاهرة الزار، ونظرًا للتنافس الغربي، فقد قام القنصل الفرنسي في جدة بتسريب سر وجوده في مكة المكرمة، لذا سارع هورخرونيه إلى تركها[٣٧].

ألف هورخرونيه كتاب صفحات من تاريخ مكة المكرمة وهو كتاب عظيم الشأن، ويعد بحق مصدرًا لمجمل حالة مكة المكرمة في القرن الثالث عشر الهجري – القرن التاسع عشر الميلادي، خاصة ما يتعلق بالنواحي الإثنوغرافية، ولا نعدو الحقيقة عندما نقول: "إنه لم يؤلَّف كتاب عن مكة المكرمة يصف ماهي عليه في القرن الثالث عشر الهجري مثل كتاب هورخرونية، ولا نظن أن أي باحث في تاريخ مكة المكرمة الحديث يستطيع أن يتجاوزه"[٣٨].

٩. رحلة جرفييه كورتليمونGervais Courtellmont[٣٩]:

تُعد زيارة المصور الفرنسي المحترف جرفي كورتليمون إلى مكة المكرمة، أول زيارة من نوعها، شجعه عليها أصدقاؤه الجزائريون، لكي يتعرف أكثر على سلوك المسلمين وعاداتهم.

وصل كورتلمون مكة المكرمة عام ١٣٢١هـ – ١٨٩٤م من الجزائر، أخذ صاحبنا عدة صور لمكة المكرمة والبيت الحرام بلغ عددها ٣٤ صورة. ووصف مكة وسكانها، وقال:" إن الإسلام دين عظيم

---

[٣٥] المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية، مرجع سابق، ٢١١/٢.

[٣٦] ولد في ٨ فبراير ١٨٧٥م في قرية واقعة في إقليم برابنت شمال هولندا، دخل المدرسة الأولية في قريته، ثم بريدا، درس اللاهوت في جامعة ليدن، قام برحلته المشهورة هذه في عام ١٨٨٤م، تحت اسم عبد الغفار(انظر: عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص: ٣٥٣).

[٣٧] قاسم السامرائي، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، دار الرفاعي، الرياض، المملكية العربية السعودية، ط١ ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م، ص: ١١٠ – ١١٣.

[٣٨] سنوك هورخرونيه . صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري. ج٢. ترجمة محمد بن محمود السرياني، ومعراج بن نواب مرزا ومراجعة محمد إبراهيم أحمد علي (مكة المكرمة: نادي مكة الثقافي الأدبي ، ١٤١٠-١٩٩٠)

[٣٩] ولد جول جرفيية في مدينة آفون بالقرب من باريس، في الأول من يوليو عام ١٨٦٣م، كان أبوه ميسور الحال، وتوفي أبوه وهو صغير، وتزوج أمه كورتليمون، الذي أخذ اسمه، جورفيية كورتلمون، نشأ في الجزائر، وسافر إلى الحج تحت اسم عبد الله بن البشير، تدون رحلته هذه في كتاب، موسوم بـ" رحلة إلى مكة" توفي عام ١٩١٣م. (انظر: جورفيية كورتلمون، رحلة إلى مكة، ترجمة أحمد ايبش، اصدارات الدار الوطنية، أبو ظبي – دولة الإمارات – العربية، ط١، ١٤٣٤هـ – ٢٠١٣م، ص: ٧ – ١٠.

وبسيط، ولكنه لا يملك الجرأة الكافية لاعتناقه"، وقال: إنه سمع حكاية منتشرة بين السكان مفادها أن من يدفن في مكة المكرمة أو المدينة المنورة يذهب إلى الجنة"[٤٠].

بعد هذه النماذج، التي صنَّفناها تحت رحلات المستشرقين الجاسوسية والاستخباراتية، يستطيع الباحث أن يستنتج ما يلي:-

أ. مجموعة من المستشرقين كلفوا بهذه الرحلات، تكليفاً من قبل ملوك الدول الأوربية.

ب. ومجموعة منهم جاؤوا تحت إمرة الجيوش المحتلة، كجيش نابليون، والجيش البرتغالي.

ت. كانت رحلات بعضهم مدعومة من الحكومات الأوربية الاستعمارية.

ث. كلهم تنكروا تحت شخصيات مسلمة، وأسماء إسلامية مستعارة.

ج. دراسات بعضهم صاحبها، عدم اكتراث موضوعي، والاعتماد على التجسس، وكانت هذه الدراسات فطيرة، وغير دقيقة، ولم يستفد منها كثيراً.

ح. منهم من ارتبط بزيجة بالبلد الذي يقيم فيه.

خ. نسبة للتنافس المحموم بين الدول الاستعمارية، كانت هناك وشايات، وتسريب معلومات، للمسلمين، بحقيقة جاسوس منهم، ومنهم دس السم للقضاء على جاسوس منهم.

ثانياً: الرحلات الموضوعية:

بكل أمانة، وتجرد تقضيه المنهجية العلمية، ، تبيَّن لنا من خلال بحثنا في رحلات المستشرقين، لزيارة الأراضي المقدسة، في مواسم الحج، أن مجموعة من المستشرقين، دفعتهم الدوافع العلمية، للتعرف على الحج، وعلى الأراضي المقدسة، لذا كان علينا نأتي بأمثلة لذلك، على النحو التالي:-

١. رحلة كرستين نيبور Carsten Neibuhr[٤١]:

لعل العالم الدنماركي كرستين نيبور، الذي وصل إلى جدة في نهاية سنة ١١٧٦هـ_١٧٦٢م مع فريق علمي، كلفه إمبراطور الدانمارك فردريك الخامس Frederick V[٤٢]، بدراسة الحياة الاقتصادية والاجتماعية والبيئية والجغرافية للحجاز. أقول لعل نيبور من أشهر الرحالة الجادين، وتُعد كتاباته عن بلاد الحجاز رائدة في مجال الاستكشافات العلمية. وكان نيبور دقيقًا في ملحوظاته، كما هو الشأن في كل كتاباته. سجل نيبور معلومات كثيرة من مدوناته، ومدونات زملائه في الفريق العلمي. جاءت مكتشفاتهم وملحوظاتهم عن جزيرة العرب في مجلدين كبيرين.

---

٤٠ محمد أحمد الحناشي، كورتليمون ورحلته، دار التراث، الرياض – المملكة العربية السعودية، ط١، ٢٠٠٢م، ص: ٩- ١٦. (بتصرف).

٤١ كارستن نيبور بالألمانية (Carsten Niebuhr :مستكشف وعالم رياضيات وعالم خرائطألماني عمل في خدمة الدولة الدنماركية، عاش في الفترة ما بين 1733-1815ولد كارستن نيبور في قرية بشمال غرب ألمانيافي سكسونيا السفلى، عمل فلاحاً في مزرعته أول سنين حياته، ثم أظهر ميلاً لدراسة الرياضياتوتلقى بعض الدروس في علم المساحة والخرائط. (انظر: الرحلة العربية للدنماركي نيبور، ترجمة اهنس كريستين فنيك، اصدارات مركز الجزيرة للدراسات، ط١،). و انظر: عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، مرجع سابق، ص: ١٠٥

٤٢ فريدريك الخامس ملك الدنمارك (31مارس ١٧٢٣ – ١٤ يناير ١٧٦٦) كان ملك الدنماركو النرويجودوق شليسفيغو هولشتاينمن ١٧٤٦ حتى وفاته.

إن الدقة التي اتصف بها نيبور – وغيره من الرحالة – ومحاولتهم أن يكونوا موضوعيين في أحكامهم ليست نابعة بدرجة أولى من ضمائرهم الحية ، بل الواقع أن لدى الأوربيين مبدأ يقول:" إن ما يُبنى على الحقائق الموضوعية والمعلومات الحقيقية، من برامج سياسية أو اقتصادية هو ما نستطيع أن نتوقع أو نثق بنجاحه[٤٣].

لذلك نجد أن نيبور – بل كل المستشرقين – لم يعبأ بصورة حسنة أو قبيحة عن العرب أو المسلمين وهو الصليبي، بقدر اهتمامه أن يجمع معلومات صحيحة وموضوعية، لتوضع على مكاتب الساسة الأوربين، الذين سيبنون في ضوء هذه المعلومات، سياستهم مع العرب أو الأتراك أيام مجدهم.

فلو كانت هذه المعلومات سطحية، أو ذات هدف إعلامي، وترف فكري فمعناه أن ماسيُبنى سيُبنى على باطل ، ولاغرو أن نجد الإنجليز الذين اعتمدوا على معلومات نيبور وبعده بوركهارد كانوا أنجح من غرمائهم الفرنسيين في العالم العربي، وأكثر حضوراً في واقعنا التاريخي."ولكنه بالرغم من هذه الموضوعية العلمية، شأنه شان أي مستشرق مغروض، كان ينظر باستعلائه الغربي، ودونية كل ما هو عربي، وهذا ما عبر عنه قائلاً :"ذهبت إلى البلاد العربية، وأنا محاط بنظرة غربية متعالية ودونية للعرب، وأحكام مسبقة". ثم ينحي باللائمة على الأوربيين بقوله "نحن نصدر أحكاماً مسبقة، دون أن نعطي لأنفسنا فرصة التعرف على الآخر والاطلاع على ثقافته."

٢. رحلة المغامر المستشرق إدوارد رابيلEdward Ruppel:

زار جدة المغامر الألماني إدوارد رابيل عام ١٢٤٧هـ-١٨٣١م، وهو يُعد من المستكشفين العظام الذين قدموا للعلم والتاريخ الشيء الكثير، وذلك من خلال استكشافه للآثار في مصر وبلاد النوبة، والشام، والساحل الشرقي للبحر الأحمر، وسيناء وإثيوبيا، وكردفان. وبعد عودته من رحلاته المتعددة، أمضى بقية حياته في مدينة فرانكفورت، وعكف على نشر مذكراته وأبحاثه التاريخية والآثارية .

٣. رحلة المستشرق النمساوي محمد أسدMuhammad Asad:

وهو أشهر المستشرقين على الإطلاق بسبب صِدْقه؛ فقد اعتنق الإسلام بصدق وإيمان، وذلك عام ١٩٢٦م، وألَّف عدَّة كتُب أشهرُها "**الطريق إلى مكة حاجًّا**"، وبقِي هناك خَمس سنوات يتعلَّم أصول الدين والفقه.

٤. رحلة المستشرق البلغاري توفيان تيوفا نوفاT.T.Nouva:

وهو الأستاذ في جامعة صوفيا، والعضو في جمعيَّة المستشرقين الأميركيين، وعضو اتِّحاد المستشرقين الأوروبيِّين، فقد صرَّح أنَّه اعتنق الإسلام عن اقْتناع تام؛ لأنَّه الدين الحقُّ الذي يُسوِّي بين البشر، ويصون جَميع الحقوق الإنسانية، ويُرسى قواعد السلم والأمن في المجتمعات البشريَّة كافَّة.

قضى أكثر من ١٢ عامًا لإنجاز ترْجمة صحيحة لمعاني القرآن الكريم باللغة البلغارية، وبعد الانتهاء من إنجازها، أعلنَ اعتِناقه للإسلام، بعد أن تفهَّم معاني الآيات القرآنيَّة الكريمة؛ نتيجةً لتعمُّقه

٤٣عبد العزيز عبد الغني، إبراهيم، مرجع سابق، ص: ١١٩ – ١٢٨.

في دراسة الإسلام، ومعطياته الحضاريَّة والثقافيَّة الوفيرة، حيث ثبت لديْه أنَّ الحضارة الإسلامية هي أمُّ الحضارات العالمية المعاصرة، وأرقى أنواع الحضارات في العالم كله[٤٤].

أدَّى فريضة الحجِّ عام ١٩٩٩م، ولم يَجد معارضةً من أسرته بشأن اعتناقه الإسلام؛ فهو المسلم الوحيد في أسرته، وزوجته وابنته ما تزالان على عقيدتهما المسيحيَّة الأرثوذكسيَّة، وأشار أنَّ ترجمة معاني القرآن الكريم التي أنجزها قد تمَّت مراجعتُها، وأشرفت على طباعتها دارُ الإفتاء في بلغاريا.

٥. رحلة الحاج عبد الله وليامسون Williamson:

أما الحاج عبد الله وليامسون فهو بحق مسلم، وحج حجته الأولى عام ١٣١٣هـ- ١٨٩٥م، وليامسون بريطاني مغامر، ، اعتنق الإسلام، ذهب بعد ذلك إلى العراق حيث قضى معظم سنوات عمره، ووظف خبرته لصالح شركة النفط البريطانية، كتب رستانتون هوب قصة حياة وليامسون في كتاب عنوانه: الهارب إلى الله[٤٥].

٦. رحلة جرمانوس عبد الكريمAlias Julius Abdulkerim Germanus[٤٦]:

جرمانوس من المستشرقين المحدثين نسبياً، وأحد القلائل الذين زاروا الأماكن المقدسة في مكةوالمدينة، حيث سافر عام ١٩٣٥م من مصر إلى جدة، وكتب مذكرات رحلته إلى الأماكنالمقدسة باللغة المجرية تحت عنوان "الله أكبر"، وترجم هذا الكتاب إلى لغات عدة. وقدألح عليه حب الرسول صلى الله عليه وسلم لمعاودة الحج للمرة الثانية، فعاد إلى الأراضي المقدسة عام ١٩٣٩م.

ولجرمانوس فضل في حث محمد حسين هيكل على الحج وزيارة الأماكن المقدسة، التي سجلها في كتابه "في منزل الوحي" حيث يقول محمد حسين هيكل في مقدمة كتابه: "وجعلت أدير شارة الراديو على محطات مختلفة حتى كانت "بودابست"، وكانت أول عبارة تنفست عنها الإذاعة قول المحاضر –يقصد جرمانوس– : "وسط هذه الجموع الحاشدة حول الكعبة جعلت أسمع: الله أكبر، الله أكبر: فلما انتهيت من الطواف، ذهبت أسعى بين ربوتي الصفا والمروة".ويقول محمد حسين هيكل: فقلت في نفسي: "أو يكون هذا الأستاذ الأوربي الحديث العهد بالإسلام، أصدق عزماً مني في زيارة الأماكن الإسلامية المقدسة؟". كما استجاب الله تعالى لدعاء جرمانوس، فأسلمت زوجته على يد الأستاذ الأديب أحمد عبد الغفور عطار.

وقد كتب جرمانوس في صحف أوربا عن الإسلام فقال في بعضها: "إني وأنا الرجل الأوربي الذي لم يجد في بيته إلا عبادة الذهب والقوة والسطوة الميكانيكية، تأثرت أعمق التأثر ببساطة الإسلام وعظمة سيطرته على نفوس معتنقيه .. إن الشرق الإسلامي، سيبقى مستولياً على لبي بروحانيته، ومثله العالية، والإسلام حافظ دائماً على مبادئه الداعية إلى الحرية، والإخاء والمساواة بين أبناء الجنس البشري" . ومما

٤٤قاسم السامرائي، مرجع سابق: ص: ١٨١.

٤٥المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية، مرجع سابق، ٢٤٣/١.

٤٦ولد" عبدالكريم جرمانوس "في مدينة بودابست – عاصمة المجر – عام ١٨٨٤م، ونشأ فيها نصرانيًّا، وإثر تخرُّجه في جامعة بودابست رأى القائمون على أمرِها أن يتخصَّص في دراسة اللغة التركية، فبعثتْه الجامعة سنة ١٩٠٣م إلى جامعة إستانبول ليتعلمَ اللغة التركية، وقد استطاع خلال عامين أن يُجِيد اللغة التركية قراءةً وكتابةً ومحادثة،، خلال مدة وجوده في جامعة إستانبول – أن يقرأ تفسيرًا للقرآن الكريم باللغة التركية؛ لتكون البداية الأولى لتحوُّله واهتمامه بالإسلام والقرآن.

كتب أيضا: "وقد سما الإسلام بالأفراد من وحدة الحيوانية إلى آفاق إنسانية فسيحة، وأني لأؤمل، بل أتوقع أن يكون الإسلام قادراً مرة أخرى على تحقيق هذه المعجزة في الوقت الذي تحيط بنا فيه ظلمات كثيفة"[٤٧].

ثالثاً: رحلات مستشرقين أرقاء وعبيد:

مجموعة غير قليلة من المستشرقين، جاؤوا إلى بيت الله الحرام، كعبيد وأرقاء برفقة أسيادهم، في رحلاتهم إلى الحج، يخدمونهم، في رحلتهم الشاقة، ومن ثم قاموا بتدوين مذكراتهم، عن الحج وشعائره، وعن مكة والمدينة وغيرها من الأوصاف التي ساقوها[٤٨].

١. رحلة الحاج جون وايلدJohann Wild:

وفي عام ١٠١٢هـ-١٦٠٤م زار أول رحالة ألماني الحجاز وهو جون وايلد، وقد كان ممن أسر، ثم بيع في سوق النخاسة في إستانبول إلى تاجر من مصر، فأخذه التاجر معه إلى القاهرة، حيث بيع للمرة الثانية لتاجر من فارس، الذي أخذه معه لأداء فريضة الحج. يقول جون وايلد: "إن الحجاج الذين رافقهم عانوا في الطريق معاناة كبيرة، ومات منهم عدد عظيم، ونفق من الجمال أعداد لا تحصى". وصف وايلد مناسك الحج من دخول الحجاج مكة المكرمة، حتى زيارتهم للمدينة المنورة. وقد قدّر عدد حجاج مصر، وسورية، واليمن بأربعين ألف حاج[٤٩].

٢. رحلة الحاج جورج بيتس George Pitts:

وهو بريطاني الأصل، وصل إلى الحجاز في سنة ١٠٩٧هـ-١٦٨٥م ، وكان في بداية رحلته من أوروبا، تعرض للأسر في البحر الأبيض المتوسط، وبيع لأحد المواطنين في الجزائر. وقد انتقل بيتس، من سيد إلى آخر، فصحبه سيده الأخير إلى مكة المكرمة. وصف بيتس المسلمين ولباسهم وتدينهم كما شاهدهم في مكة المكرمة وفي عرفات. وزار بيتس مع سيده المدينة المنورة. وقد دون ذكرياته عن بلاد الحجاز في كتاب بعد أربعين سنة من وقوع الرحلة[٥٠].

المبحث الثاني

رحلة المستشرق جان كلود جارسان Jan Cloude Jarsan

وطريق الحج قوص – عيذاب

يمثل الاستشراق الفرنسي لوحة كبيرة، رسمت ملامحها في القرن السادس عشر الميلادي، وقد أدت فرنسا دوراً مهماً في خارطة الاستشراق، منذ تأسيس مدرستي ريمس وشارتر لتدريس اللغة العربية في باريس، وكرسي الدراسات الإسلامية في جامعة السوربون[٥١].

---

[٤٧] المرجع السابق، ١٥٦/٢.

[٤٨] قاسم السامرائي، مرجع سابق، ص: ٢٧.

[٤٩] قاسم السامرائي، مرجع سابق، ص: ٣٥.

[٥٠] المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية، مرجع سابق، ٢٤٣/١.

[٥١] انظر: روبير متران، سلسلة الثقافة المقارنة – الاستشراق، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق – بغداد، ١، ١٩٨٧م، ٤٣/٢.

إن فرنسا ترى – كسائر دول الغرب– إن الوعي الإسلامي خطر على النفوذ الأجنبي في البلاد الإسلامية، ففي عام ١٩٧٥م صدر في باريس كتاب اسمه " الملف السري لشمال إفريقيا" ألفه " بيار فونتين" وملأه بالحقد والمغالطات، لكنه كشف عقدة الخوف من العروبة والإسلام، فكان مما قاله :"إن قضية السيطرة الإسلامية، قضية رئيسة بالنسبة إلى شمال إفريقيا، قد تكون غداً أكثر ثقلاً فيما يتعلق بالمسلمين في القارة السمراء، أولئك المسلمون الذين يقومون بعبادات محببة جداً إلى أصحاب عدد من المذاهب الفطرية والوثنية"[٥٢].

بدأ الاستشراق الفرنسي منذ بواكيره، وبداية تناوله للشرق، الاهتمام بالمؤلفات الشرقية، وبمصر على وجه الخصوص، ويبدو ذلك واضحاً في المصنف الشهير "وصف مصر" وهو جهد ضخم للعلماء المرافقين للحملة الفرنسية على مصر[٥٣].

المستشرق الفرنسي جان كلود جارسان، يعد امتداداً لهذه المدرسة الوصفية، نجده عبر كتابه عن قوص ازدهار وانهيار حاضرة مصرية، يصف طريق عيذاب، وهو على غرار هذا، يسبح في ذات التيار، الذي اختطه الاستشراق الفرنسي الوصفي، الساعي للتوسع والاستعمار، ولتلك الأسباب المعروفة، والداعية لمعرفة الشرق في ذلك الحين، الذي قام على التفاعل، والتدافع، والمغالبة والهجمة الشرسة على الشرق، بما يختزنه من كنوز وخيرات وثروات.

رحلة جارسان وكتابه "قوص: ازدهار وانهيار حاضرة مصرية":

المستشرق الفرنسي جان كلود جارسان واحد من الرحالة المستشرقين الغربيين، الذي سلكوا هذا الطريق، وقدموا وصفاً كاملاً لطريق قوص – عيذاب، من خلال كتابه الموسوم قوص ازدهار وانهيار حاضرة مصرية"[٥٤]، ونحن في هذه الورقة حينما نتناول هذا الطريق المهم، من طرق الحج، التي سلكها القاصدون لبيت الله الحرام، من شعوب آوربا وآسيا وإفريقيا، نبتدر هذا الوصف بالتعريف بقوص وعيذاب من حيث الموقع الجغرافي والتاريخ.

لم يحظ أي طريق قديم من طرق الحج المصرية، بمثل شهرة طريق قوص – عيذاب، الذي كان يربط مدينة قوص التاريخية بمحافظة قنا وميناء عيذاب على البحر الأحمر عبر الصحراء.

شهرة هذا الطريق جعلته في مرمى نظر مشاهير الرحالة الغربيين والعرب على حدٍّ سواء، ومن العرب أمثال ابن جبير وابن بطوطة، والمؤرخين كالمقريزي وياقوت الحموي والإدريسي وغيرهم، فتبارى العشرات منهم في وصف كل شيء عن هذا الطريق، الذي ظل في الصدارة أربعة قرون كاملة من القرن الخامس حتى الثامن الهجري والذي كان عاملاً مؤثراً في إكساب مدينة قوص العريقة جزءاً في غاية

٥٢عبد الرحمن عميرة، الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وتضليل الاستشراق، دار الجيل،لبنان– بيروت، ط١، ١٩٩٩م،ص:١٤.

٥٣أنور محمود زناتي، زيارة جديدة للاستشراق، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة – مصر، ط١، ص: ٩١.

٥٤يتناول هذا الكتاب الرائد تاريخ مدينة مسلمة ، محللاً أسباب ظهورها كمدينة ، وأسباب تطورها واختفائها ، مع تناول التاريخ الحضري ضمن إطاره الإقليمى ، وهو إطار الصعيد الأعلى فى العصر الوسيط ، وهو عصر يظهر فى هذا البحث مقارناً بالعصور التى سبقته والتي تلته. وإلى جانب الأبحاث المباشرة التى قام بها الباحث فى الساحة ، فإنه يرجع إلى حشد من المصادر والأدبيات العربية والأجنبية، سعياً إلى رسم ملامح مدينة نشأت من قلب الريف؛ لتذوب فيه مرة أخرى، مقدماً بحثًا فريدًا في مجال الكتابة التاريخية، وعلم الاجتماع الحضرى على حدٍّ سواء. انظر: جان كلود جارسان، ترجمة بشير السباعي. المشروع القومي للترجمة ،إشراف جابر عصفور؛١٨٦٥م، القاهرة : المركز القومي للترجمة،ط١ ، ٢٠١٢م، ص: ٤٩.

الأهمية من شهرتها العالمية آنذاك،ولم تتوقف شهرة الطريق عند الحج، بل تجاوزته ليصبح طريق العلم، إذ كان ملاذ المئات، بل الآلاف من طلاب العلم والشعراء، القادمين عبر البحار من جميع الأرجاء، قاصدين قوص، التي كانت تحتل مكانة الصدارة العلمية في قلب العالم الإسلامي، فهي قلعة العلم وكعبة العلماء، وكان لشهرة مدارسها الستة عشرة فعل السحر، لكل تواق للنهل من بحور جهابذتها، كما كانت من أشهر المراكز التجارية الجاذبة حتي للتجارة من بلاد الهند والشام والجزيرة العربية واليمن وغيرها.

أولاً: تاريخ وجغرافية قوص وأصل التسمية:

قوص هي مدينة ومركز بمحافظة قنا، تقع على الساحل الشرقيمن النيلجنوب القاهرةبحوالي ٦٤٥ كم. قيل إنها سميت على اسم رجل اسمه "قوص"، وقال آخرون" إنها كلمة قبطية تعني "الكفن" لأن أهلها كانوا مهرة في دفن الموتى وتكفينهم . وقال آخرون إن اسمها يعود إلى كلمة ناقوسلكثرة ما بها من كنائس وأديرة كانت منتشرة بها لدرجة أن وصل عدد المذابح الكنسية إلى ً ٣٦٥ مذبحاً.

كان لقوص مكانة كبيرة في العصور الإسلامية، فقد كانت عاصمة لإقليم مصر العليا، وكان واليها يحكم كل مناطق ومدن الصعيد، في الوقت الذي كان فيه الوجه البحري مقسماً بين ثلاثة ولاة هم: والي الشرقية ووالي الغربية ووالي الإسكندرية. وحول دور قوص كعاصمة إسلامية لصعيد مصر في العصور الوسطى، تقول باحثة مصرية في دراسة[٥٥]: "إن قوص كانت أعظم مدن الصعيد، وهي تقع شرق النيل، وبنيت بعد انهيار فقط وضعف مكانتها في زمن أحد ملوك القبط، ويدعى سدان بن عديم بن البودسير، مشيرة إلى أن قوص اشتهرت إلى جانب بناياتها وبساتينها، وموقعها الإستراتيجي سواء في أوقات السلم أو الحرب، بكونها مدينة تجارية، فقد كانت تستقبل التجار من بلاد اليمن والهند والحبشة، بمراكبهم التجارية المحملة بشتى أنواع البضائع، من الفلفل والبهار والصمغ والحرير والعنبر والمسك والبخور، وكانت هذه البضائع تنقل من ميناء عيذاب إلى قوص، على ظهور الإبل، ومنها تنقل في النيل إلى الفسطاط، وكان يصدر منها المصنوعات المصرية إلى بلاد المشرق، وكانت قوص أيضا مدينة زراعية، وعرفت بإنتاج الشعير والذرة وقصب السكر والقمح والعنب بالإضافة إلى أجود أنواع الفاكهة والرياحين ورطب البلح الذي قيل فيه إنه ليس نوعاً من أنواع التمر بالعراق، إلا وفي صعيد قوص مثله وفيه ما ليس في العراق وأنه لا يوجد تمراً يصيراً تمراً قبل أن يكون رطبا إلا بالصعيد".

وتشير الدراسة إلى أنه اكتشف في قوص مجموعة من التحف الخزفية والفخارية والزجاجية والخشبية والمعدنية، من أهمها القمقم الزجاجي ذو البدن البيضوي الشكل المسطح من الجانبين، وله رقبة قصيرة تستدق قرب الفوهة، ويزخرف البدن شريط عريض، به رسوم آدمية لموسيقيين وعازفين في جلسات الطرب، وذلك بالمينا الحمراء والزرقاء والبيضاء، وبعض آثار التذهيب، ويكتنف هذا الشريط العريض من أعلاه وأسفله، عناصر زخرفية نباتية، ومثلها حول الرقبة، ويعلو شريط به كتابة نسخية نصها: "مما عمل برسم الباب الأجل بدر الدين محمود دام عزه محددة بخطوط رفيعة بمينا حمراء أيضاً، من أهم

٥٥وهي الدكتورة عائشة عبدالعزيز التهامي الأستاذ بقسم الآثار الإسلامية بكلية الآداب جامعة جنوب الوادي.

التحف التي عثر عليها في قوص، السلطاني الخشبية ذات الغطاء، والأبريق النحاسى المكتوب بالذهب والفضة، وعليه اسم الأمير طبطق[٥٦].

قوص في ذاكرة الرحالة:

زار قوص كثير من الرحالة ووصفوها في كتبهم، مثل الرحالة الفارسي ناصر خسرو، الذي زار قوص في عام ٤٤١ هجرية وقال عنها: "رأيت فيها أبنية عظيمة من الحجارة، تبعث على العجب، وهي مدينة قديمة، محاطة بسور من الحجر، وأكثر أبنيتها من الحجارة الكبيرة، والعجيب أنه ليس على مسافة عشرة أو خمسة عشر فرسخا منها، جبل أو محج،ر ويتساءل الرحالة فمن أين وكيف نقلوا هذه الحجارة؟".

أما الرحالة المغربي ابن جبير، فقد زار قوص في عام ٥٧٩ هجرية وقال عنها: «هذه المدينة حافلة بالأسواق، متسعة المرافق، كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين، وتجار أهل الحبشة؛ لأنها محط للجميع، وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين ومن يتصل بهم ممن يمرون بصحراء عيذاب في طريقهم إلى الحج»[٥٧].

وقال عنها الرحالة ابن بطوطة: "قوص مدينة عظيمة، لها خيرات وفيرة، وبساتينها مورقة، وأسواقها مونقة، وبها المساجد الكثيرة والمدارس الأثيرة"[٥٨].

الحياة العلمية في قوص:

أشار المستشرق الفرنسي جارسان J.C.Jarsan إلى أن مجتمع قوص الإسلامي، كان ظاهرة فريدة في تاريخ مصر العليا خلال القرون الوسطى، وكانت مزدهرة ثقافياً خاصة في العصر المملوكي، فقد بلغ عدد المدارس فيها ١٦ مدرسة من بين ٧٥ مدرسة كانت موجودة في مصر في ذلك الوقت، مشيراً إلى أن مدراس قوص، كانت تستقبل طلاب العلم من مختلف الجنسيات، وكان يتوافد عليها العلماء والمتصوفة من الشرق والغرب، وكانت مدارس قوص، لا تقل شهرة عن مدارس القاهرة والأسكندرية، كما كان لنزول المقرئين المغاربة بهذه المدينة، دور كبير في ازدهار مدرسة القراءات فيها وفي الصعيد بصفة عامة، وأن هذه المدارس قامت أيضا بوظيفة المساجد في صلاة الجمعة، وكان يقع على عاتقها، مسؤولية محو أمية الأهالى، وتعليم الأطفال الأيتام القراءة والكتابة وتحسين الخط العربى، كما ضمت قوص العديد من الزوايا، ودور الحديث والمساجد الجامعة، التي قامت بدور رئيسي في نشر المذهب السني في مصر العليا. وكانت قوص أيضاً بلد العلماء والفقهاء، ومن أهم علمائها العلامة أبو

٥٦وهو من أمراءالملك الأشرف خليل الذي حكم في الفترة ٦٨٩ – ٦٩٣ هـ / ١٢٩٠ – ١٢٩٤ م. وكان طبطق حاكماً لمدينة قوص في صعيد مصر أثناء فترة الحكم الثالثة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩ – ٧٤١هـ / ١٣٠٩–١٣٤٠م.

٥٧ابن جبير، تذكرة بالاخبار عن اتفاقيات الأسفار، دار صادر، بيروت – لبنان، (د.ط وت)، ص:٤٥..

٥٨انظر: ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار، تحقيق وتقديم وتعليق: علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط٤، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م، ٦٩/١.

الفضل بهاء الدين زهير المكي القوصي النشأة، المعروف بالبهاء زهير، صاحب الديوان المشهور[٥٩]، ومنها أيضا الإدفوي، وقد وصل عدد العلماء والأدباء والشعراء ورجال الدين الذين ينتسبون إلى قوص، أكثر من مئتي شخصية، ومن أشهر العلماء فيها ابن دقيق العيد[٦٠].

قوص والموقع الاستراتيجي:

قوص كانت آمنة، وقد ظهر ذلك بصورة واضحة في زمن الحروب الصليبية، كذلك تمتعت هذه المدينة بالأمن الداخلي، وإلى جانب الموقع المتميز لقوص، على النيل من الناحية التجارية والإقتصادية، فقد كانت مركزاً حربياً ودفاعياً، حيث استخدم هذا الميناء، في بناء وصناعة السفن والمراكب الحربية في القرن الخامس الهجرى، وكانت أيضاً داراً لضرب النقود، أو مصنعاً لسك العملة، وقد تم العثور على الكثير من العملات المدفونة في عام ٦٢٢ هجرية في عهد الظاهر بيبرس، وترجع هذه العملات إلى العصر الروماني.

معالم قوص الحضرية وتراثها التاريخي:

عثر المستشرق الفرنسي جارسان على عملات ذهبية في أكوام ترابية وراء المسجد العمري في قوص، ترجع إلى عهد الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله، لكن لم يصلنا من هذه العملات سوى دينار ذهبي واحد، تم سكه في دار ضرب قوص، ونقش عليه اسم الخليفة الآمر بأحكام الله سنة ٥١٧ هجرية، وهي عملة فريدة ومحفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة، وتشير الوثائق إلى أن الفاطميين أنشؤوا مصنعاً لسك العملة في قوص؛ لتسهيل عملية تحصيل الرسوم، والضرائب الجمركية على البضائع التي تمر في هذا الميناء، موضحة أن من المعروف أن سك العملة، أحد علامات الملك والخلافة ورمز من رموز السلطة[٦١].

ويشير جان كلود جارسان إلى أن مسجد العمري أقدم مسجد أنشئ في قوص في العصر الفاطمي سنة ٤٧٣هـ، ويتكون من صحن مكشوف مستطيل الشكل، تحيط به الأروقة، وأكبرها رواق القبلة، الذي يحتوي على خمس بوائك ذات عقود مدببة، ويحتفظ المسجد بالعديد من عناصره الزخرفية، لكن عناصره المعمارية فقدت الكثير من معالمها الأساسية، خاصة المئذنة بسبب التجديدات والترميمات التي شهدها

٥٩بهاء الدين زهير المكي الأديب البارع ، الصاحب ، بهاء الدين ، أَبُو الفضل ، وأبو العلاء الأَزْدِيّ ، المهلبي ، الْمَكِّيّ ، ثم القوصي ، الْمَصْرِيّ ، الشاعر ، الكاتب، وُلِد سنة إحدى وثمانين وخمسمائة بمكّة.(انظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، ط١٦،: ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، 5/378.

٦٠محمد بن علي بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة القشيري القوصي، أبو الفتح تقي الدين، ابن دقيق العيد، محدِّث وفقيه مصري، لُقِّب بمجدد المائة السابعة. ولد ابن دقيق العيد، وأبواه متوجهان إلى الحجازلأداء فريضة الحجفي (٢٥ من شعبان ٦٢٥هـ=٣١ من يونيو ١١٢٢م)، ولما قدم أبوه مكة حمله، وطاف به البيت، وسأل الله أن يجعله عالماً عاملاً . ونشأ ابن دقيق العيد في قوص بين أسرة كريمة، تعد من أشرف بيوتات الصعيد وأكرمها حسبًا ونسبًا، وأشهرها علمًا وأدبًا، فأبوه أبو الحسن علي بن وهب عالم جليل، مشهود له بالتقدم في الحديث والفقه والأصول، وعُرف جده لأبيه بالعلم والتقى والورع، وكانت أمه من أصل كريم، وحسبها شرفًا أن أباها هو الإمام تقي الدين بن المفرج الذي شُدّت إليه الرحال، وقصده طلاب العلم.وتعود سبب شهرته باسم ابن دقيق العيد، أن جده "مطيعًا" كان يلبس في يوم العيد طيلسانًا ناصع البياض، فقيل كأنه دقيق العيد، فسمي به، وعُرف مطيع بدقيق العيد، ولما كان "علي بن وهب" حفيده دعاه الناس بابن دقيق العيد، واشتهر به ابنه تقي الدين أيضًا، فأصبح لا يُعرف إلا به .

٦١جان كلود جارسان، مرجع سابق، ص: ٥٤.

في العصور المختلفة، مشيرة إلى أن من أهم العناصر الزخرفية، المنبر الخشبي الذي يعد واحداً من أقدم ثلاثة منابر خشبية كاملة على الطراز الفاطمي، ما تزال باقية حتى الآن، وهو من خشب الساج الهندي المحفور حفراً بارزاً، والمزخرف بالحشوات المجمعة، التي بدأت في الظهور في أواخر العصر الفاطمي، ويرَّجع علماء الآثار أهمية هذا المنبر إلى اللوحة التأسيسية التي كتبت بالخط الكوفي المزهر فوق بابه، ومثبت عليها تاريخ إنشائه سنة ٥٥٠ هجرية في عهد الخليفة الفائز بنصر الله، وقد أضيف لهذا المنبر إضافات عديدة في عصور مختلفة، مثل الدرابزين والأبواب والدرجات الأولى. ويشار إلى أن المسجد يحتوى أيضاً على محراب جصى من العصر المملوكي، يشتمل على عناصر زخرفية نباتية مورقة، أرابيسك، وزخارف هندسية، وأشكال نجمية بديعة التكوين، تشبه زخارف المحراب المملوكي، الموجود بجامع عمرو بن العاص، ويحيط بالمحراب كتابة بخط الثلث المملوكي، وهناك أيضاً مقصورة في نهاية رواق القبلة، وهي من خشب الخرط الذي انتشر استعماله في العصر المملوكي، وبها حشوات سداسية الشكل، ذات زخارف محفورة حفراً عميقاً، وداخل هذه المقصورة كرسى المصحف، من الخشب المزخرف بالحشوات المجمعة والمطعم بالصدف والعاج ويزخرف الكرسى شريط من الكتابة بخط النسخ المملوكي من آية الكرسي ونص كتابى آخر. وبالركن الشمالى الشرقى قبة جصية، تحتفظ بحالتها المعمارية والزخرفية، منذ العصر الأيوبي وهي منفصلة عن الجامع، وترتكز على أربعة عقود، يعلوها في الأركان صفان من المقرنصات، وزخرفت القبة من الخارج بتضلعات، تتخللها فتحات ذات أشكال سداسية على هيئة نجوم. وقد أنشأ القبة وجدد بعض أجزاء الجامع مقلد بن على بن نصر في العصر الأيوبي سنة ٥٦٨ هجرية. وقد أجريت لهذا المسجد الذي كان ينافس مسجد عمرو بن العاص بالقاهرة، تجديدات في العصور الأيوبية والمملوكية والعثمانية وفي عهد الخديوى توفيق[٦٢].

ثانياً: عيذاب حلايب الجغرافيا والتاريخ وأصل التسمية:

عيذاب، ميناء على ساحل البحر الأحمرفي مثلث حلايب، يعد من أهم الموانىء التي تربط طريق عيذاب الدولي، بموانىء اليمنمع الهندوالبحر الأبيض المتوسط، كما ظل أهم موانيء الحجاج إلى مكةلمدة أربعة قرون من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الميلادي، وخاصة بعد أن أغلق الصليبيون الحج عن طريق الشام.

يقع ميناء عيذاب على بعد ٢٣ كيلومتراً شمالي مدينة حلايب الحالية على خط طول٣ – ٩ وخط عرض ٢٢ درجة ١٩درجةً ، وهي تعرف أيضاً باسم عيداب ، ويقال إن عيذاب هو اسم نوع من الأعشاب باللغة البجاوية، ينمو بكثرة في منطقة عيذاب . بدأت عيذاب كنقطة لتلبية احتياجات عمال المناجم في الصحراء الشرقية، ثم صارت ميناء رئيساً ومحطاً للسفن القادمة من الهند وشرق إفريقيا وجنوب الجزيرة العربية. كما ذكر كل من ابن حوقل في كتابه "صور الأرض" وابن سليم الأسواني في كتابه "أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل.

---

[٦٢] المرجع السابق نفسه، ص: ٥٨.

عرفت أهميته منذ القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي حتى بداية القرن الثامن الهجري، وذلك بسبب الحروب الصليبية، وقرب الوجود الصليبي من سيناء، حيث خراب مدينة الفرما[٦٣] في عام ١١٥٠م. مما جعل التجار والحجاج يسلكون طريقاً آخر قوص – عيذاب ومنها عبر البحر الأحمر إلى جدة المقابل لها. وهكذا صارت عيذاب محط التجار والحجاج على طول العصر الوسيط، حيث جمعت بين الوظائف الاقتصادية والدينية والسياسية .

وتبرز أهمية عيذاب في النشاط التجاري بالسودان الشرقي، بسبب تجارة مغاص اللؤل،ؤ التي اتخذته تجارة رائجة لها في الأسواق الشرقية في هذه الفترة – يقول ابن جبير: " وفي بحر عيذاب مغاص على اللؤلؤ في جزائر على مقربة منها، وأوان الغوص عليه في هذا التاريخ المقيدة فيه هذه الأحرف، وهو شهر يونيه العجمي والشهر الذي يتلوه، ويستخرج منه جوهر نفيس، له قيمة سنية، ويذهب الغائصون عليه إلى تلك الجزائر في الزوارق، ويقيمون فيها الأيام، فيعودون بما قسمه الله لكل واحد منهم بحسب حظه من الرزق، والمغاص فيها قريب القعر ليس ببعيد. ويستخرجونه في أصداف لها أزواج، كأنها نوع من الحيتان، أشبه شيء بالسلحفاة. فإذا شقت ظهرت التشققات من داخلها كأنها محارتا فضة. ثم يشقون عليها، فيجدون فيها الحبة من الجوهر قد غطى عليها لحم الصدف، فيجتمع لهم من ذلك بحسب الحظوظ والأرزاق"[٦٤].

عيذاب في المصادر التاريخية والآثارية:

كان أول ذكر لميناء عيذاب عند البلاذري، وهو مؤرخ من القرن الثالث الهجري، وتحديداً في عام ٢٧٩هـ – ٨٩٢م ، وكان هذا في حديثه عن الحملة التي قادها محمد بن عبد الله القمي عام ٨٥٤م على منطقة البجا. وذكرها اليعقوبي في كتابه "البلدان"، والإصطخري في كتابه "المسالك والممالك"، والمقريزي في كتابه "جزيرة العجائب" وكتابه "المواعظ والاعتبار" ، والدمشقي كتابه "نخبة الدهر في عجائب البر والبحر" وابن بطوطة في كتابه "تحفة الأنظار في غرائب الأمصار" والنويري في كتابه "نهاية الأرب في فنون الأدب" وأبو الفدا في كتابه " المختصر في أخبار البشر" وأبو شامة في كتابه "الروضتين في أخبار الدولتين" وابن جبير في كتابه "تذكرة بالأخبار عن اتفاقيات الأسفار" ووصفها ناصر خسرو والمسعودي في كتابه "التنبيه والإشراق" وفي كتابه "سفرنامه"[٦٥].

أهل عيذاب:

وصف الرحالة ابن جبير عيذاب وأهلها، فيقول :" أهلها الساكنون بها من قبيل يعرفون بالبجاة، ولهم سلطان من أنفسهم، يسكن معهم في جبال المتصلة بهم، وربما وصل في بعض الأحيان، واجتمع

٦٣الفرما إحدى المدن الثلاث لمنطقة بورسعيد القديمة طبقًا للحدود الإدارية لها، حيث توجد مدينة الطينة شرقًا، وكذلك مدينة تنيس، وكانت الفرما تسمى "بيلوز"ووصل عدد سكانها إلى مائة ألف نسمة، وقد ذكرت في التوراة باسم "سين "ومعناها قوة مصر، وهي أعظم مدن هذه المنطقة خلال فترة حكم الأسر في العصر الفرعوني .وتؤكد البرديات الفرعونية على أن (ست) قد قتل أخاه أوزوريس في هذه المنطقة .وعرفت الفرما في العصر المسيحي باسم (برما أو برمون) وفي العصرالعربي الإسلامي أصبح اسمها الفرما، ومكانها اليوم تل الفرما بعد بورسعيد بعدة كيلو مترات.

٦٤نواف عبد العزيز الجحمة – "السودان الشرقي في عيون الرحالين المغاربة، ميناء عيذاب نموذجاً " – السودان وأفريقيا في مدونات رحالة الشرق والغرب ، أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمين بالخرطوم ، فبراير ٢٠٠٦م – دار السويدي للنشر التوزيع – ابوظبي –٢٠٠٦م .

٦٥مصطفى مسعد – المكتبة السودانية العربية – مطبوعات جامعة القاهرة بالخرطوم – الطبعة الأولى – ١٩٧٢م.

بالوالي، الذي فيها من الغز إظهاراً للطاعة"[٦٦] وينتقل إلى وصف حالهم المادية والدينية وغيرها فيقول:" وهذه الفرقة من السودان المذكورين فرقة أضل من الأنعام سبيلا، وأقل عقولاً، لا دين لهم، سوى كلمة التوحيد، التي ينطقون بها إظهاراً للإسلام، وراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسيرهم بما لا يرضي ولا يحل، ورجالهم ونساؤهم يتصرفون عراة، إلا خرقاً يسترون بها عوراتهم، وبالجملة هم أمة لا أخلاق لهم، ولا جناح على لاعنهم"[٦٧].

وقد ذكر لنا ابن بطوطة في رحلته أنه لم يستطع سلوك طريق عيذاب إلى الحجاز؛ لثورة البجاة والعربان هناك، كما ذكر أن سلطان جزيرة سواكن، هو الشريف زيد بن أبي نمى، وهو ابن شريف مكة، وقد صارت إليه من قبل البجاة أخواله، وفي رحلة العودة من الحج يتكلم ابن بطوطة عن خضوع بعض القبائل العربية لسيطرة البجاة فيقول: "وسافرت منه في البر مع البجاة، فسلكنا صحراء كثيرة النعام والغزلان فيها عرب جهينة وبني كاهل وطاعتهم للبجاة[٦٨].

هذا وقد لاحظ ابن بطوطة، أن لمدينة عيذاب، نظاماً خاصاً، يختلف في كينونتها السياسية عن المدن المصرية الجنوبية، إذ كان حكمها مشاطرة بين البجاة والسلطنة المملوكية، فلها حاكم من قبل ملك البجاة، وآخر من قبل سلطان المماليك، كما أن بها موظفاً إدارياً مهمته أن يكون مشرفاً على ما يرد من التجار، وأن لهم قوة عسكرية مرهوبة الجانب، بدليل أنهم اشتبكوا في قتال مع قوات الحكومة، وهنا قرر أن يعود على مثل طريقة يختار خطاً آخر، وهو بلاد الشام الذي يوصله إلى البقاع المقدسة يقول: "وثلث المدينة للملك الناصر، وثلثها لملك البجاة وهو يعرف بالحدربي --، ولما وصلنا إلى عيذاب، وجدنا الحدربي[٦٩] سلطان البجاة يحارب الأتراك الجيش المملوكي وقد خرق المراكب وهرب الترك أمامه، فتعذر سفرنا في البحر، فبعنا ماكنا أعددناه من الزاد وعدنا مع العرب الذين اكترينا الجمال منهم إلى صعيد مصر"[٧٠].

عيذاب بين قبائل البجاة والمماليك البحرية:

استمر النفوذ السياسي العسكري لجماعة البجاة في عيذاب في العصر المملوكي، فقد كان للبجاة ملك يسمى الحدربي، مقره مدينة سواكن، وقد لجأ صاحب سواكن إلى مضايقة الحكومة القائمة بمصر بالتعرض للتجار أو بالثورة، وربما كان لملك النوبة دور في دعم سلطان البجاة في الجنوب المصري،

---

[٦٦] ابن جبير، مرجع سابق، ص:٤٥-٤٨.

[٦٧] المرجع السابق، ص: ٤٨.

[٦٨] ابن بطوطة، مرجع سابق،ص: ٤٨/١.

[٦٩] الحدارية بطن من العرب بسواكنمن بلاد البجاةفي السودانوإريتروامصر، ذكرهم المقر الشهابي ابن فضل الله في كتابه التعريف بالمصطلح الشريف، ذكر أنه كان لهم شيخ يسمى الأمير سمرة بن مالك، وأنه ذو عدد جم وشوكة منكية، يغزو الحبشة وأمم السودان ويأتي بالنهب وبالسبايا، وله أثر محمود، وفعل مأثور، وذكر أنه وفد على دولة السلطان الناصر قلوون، وأكرم مثواه وعقد له لواءً وشرف بالتشريف وقلد ذلك، وكتب إلى ولاة الوجه القبلي عن آخرهم، وسائر العربان بمساعدته ومعاضدته، والركوب معه للغزو متى أراد، وكتب له تقليداً بأمرة عربان القبيلة، مما يلي قوصومنشور له بما يفتحه من البلاد إلى حيث تصل غايته. (انظر : القلقشندي،نهاية الأرب في معرفة الأنساب العرب مصدر الكتاب : موقع الوراق http://www.alwarraq.com،]الكتاب مرقم آليا غير موافق للمطبوع ٤٦/١.).

[٧٠] مرجع سابق، ٢٦٨/١.

وذلك لأنه لم يهدأ خاطره لامتداد السيادة المملوكية إلى سواكن، فقد أنقض من قبل على سواكن وعيذاب وأسر وخرب، ولهذا أرسل الظاهر بيبرس حملته إلى النوبة سنه 686هـ _ ١٢٨٧م[٧١].

خراب ميناء عيذاب:

عاشت عيذاب عصرها الذهبي، حين استطاع سكانها أن يستثمروا القيمة النسبية لموقعها، وعلاقاته المكانية، خاصة في عصر الحروب الصليبية، وآثارها على درب الحج المصري والمغربي، وفي ظل قيام دولة المماليك في مصر والشام، وفي ظل التجارة العالمية العابرة للأراضي المصرية.

الأسباب المرتبطة بخراب عيذاب :

١. الحروب الصليبية.
٢. غياب الرقابة المملوكية.
3 ـ اختلال الأمن.
4 ـ تحول مسار الطريق: تحول إلى درب الحاج المصري والمغربي.
5 ـ الكساد التجاري.

وقد ذكر الرحالة الحسن الوزان[٧٢] :" أن هذا التخريب جاء من خلال أسطول وصل عيذاب، فعاقب أهلها لما حدث منهم من نهب للقافلة، التي كانت تحمل السلع والأقوات إلى مكة"[٧٣].

تاريخ عيذاب حلايب في وقتنا الحاضر:

بحكم اتفاقية ١٩٠٢ م البريطانية كان مثلث حلايب يتبع إدارياً للسودان، ومن أهم مدنه شلاتين، حلايب وأبورماد. تطالب مصر بسيادة المنطقة منذ استقلال السودان عن مصر وبريطانيا، وقد حدثت عدة توترات بين الدولتين بخصوص تبعية المثلث، وشكل المثلث وما زال يشكل خميرة عكننة للعلاقات بين الدولتين ، وقد أخضعت مصر أخيراً المثلث لسيادتها بقرار منفرد في ١٩٩٥م.

جان كلود جارسان وعيذاب:

لم يصف جان كلود جراسان مدينة عيذاب، بل اكتفى بالحديث حول رحلة ابن جبير، وتعرض لها، فيقول صاحبها – ابن جبير – عن عيذاب: " عيذاب من أحفل مراسي الدنيا بسبب مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها زائداً مراكب الحجاج الصادرة والواردة. وهو في صحراءلا نبات فيها، ولا يوكل فيها

---

[٧١] المرجع السابق، ص: ١/٤٨.

[٧٢] الحسن بن محمد الوزان والمشهور ب ليون الإفريقي أو يوحنا ليون الإفريقي أو يوحنا الأسد الأفريقي .اشتهر بتأليفه الجغرافي في عصر النهضة، ومن أشهر مؤلفاته" وصف أفريقيا." اختلف المؤرخون في تحديد سنة ولادته، فيجعلها بعضهم عام 901هـ1495 / موبعضهم عام 906هـ- ١٥٠٠م . وانتقل للمغرب للعيش بفاسوأصبح سفيراً لسلطانها محمد البرتقاليفي سفارة مر بها على تمبكتوومالك أفريقية أخرى، وقد زار كذلك مصروإسطنبولفي رحلاته كما حج أثناء إقامته في غرب آسيا، ثم سقط في الأسر خلال توقف سفينته في جزيرة جربةواقتيد إلى روماكهدية للبابا ليون العاشرالذي حمله على اعتناق المسيحية، والبقاء لتدريس العربيةفي روما، التي كتب فيها مجموعة كتب في اللغة والأدب والجغرافيا أشهرها كتاب" وصف إفريقيا "الذي ترجم للعربية ونشر في عام 1399هـ1979 / معلى يد د .عبد الرحمن حميدة. (انظر : ابن الوزان الزياتي – وصف إفريقيا – ترجمة عبد الرحمن حميدة – مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة –٢٠٠٥م).

[٧٣] انظر : ابن الوزان الزياتي – وصف إفريقيا – ترجمة عبد الرحمن حميدة – مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة –٢٠٠٥م .

شيء إلا المجلوب، ولكن أهلها بسبب الحجاج، تحت مرافق كثيرة، ولا سيما مع الحاج، لأن لهم على كل حمل طعماً يحملونه، ضريبة معلومة خفيفة المؤونة"[٧٤].

ثالثاً: وصف المستشرق جان كلود جارسان لطريق قوص – عيذاب:

يقول جارسان :"رحلة الحجاج تبدأ بتجمعهم بالفسطاط، ثم قنا التي كان بها فندق يتجمعون به يسمى خان السلطان، شيده أشهر حكامه وهو الأمير مجد الدين إسماعيل بن اللمطي، وكذلك فندق ابن العجمي بضاحية المنيا خارج المدينة، وكانت تنطلق القوافل من منطقة أوشارع الجمالة أوالجمالين، نسبة للجمال التي تحمل الحجيج، ثم ينتقل الموكب إلى حاجر قوص، ومنها إلي منطقة حجازة والتي سميت بهذا الاسم نسبة للأراضي الحجازية والآن بها قبائل كثيرة تنتمي للأراضي الحجازية والجزيرة العربية ومنها إلى قفط وضاربين في الصحراء، وقد يتعرض الحجاج فيه لمخاطر كثيرة شأنه في ذلك، شأن كافة الطرق الصحراوية المماثلة، وبالفعل رصد المؤرخون، نهب قافلة كانت متجهة من قوص إلى عيذاب، وفي ذات زمان نهب القافلة وكأن الكوارث لا تأتي فرادى استولى القائد الفرنسي رينو دي شاتو *Reynald de Chatillon.* على الحصون الأردنية بخليج العقبة، ثم اتجه إلى جنوب البحر الأحمر٥٧٨ هجرية ووصل لميناء عيذاب وقام بنهبها، وتمادى فأشعل النيران في ست عشرة سفينة به[٧٥].

تستغرق الرحلة النيلية من مدينة الفسطاط ثمانية عشر يوماً في النيل. وكان الحجاج يستريحون بعض الشيء في "قوص، بعد أن يتزودوا بما يحتاجون إليه، ويجتمعون في "المبرز"- قبلي قوص – وهناك يتم وزن أمتعتهم وأثقالهم؛ لتقدر الأجرة عليها حيث تحمل أصحابها على ظهور الإبل، ويمكن استخدام غيرها من وسائل النقل، عبر الفيافي المقفرة التي تقل فيها المياه، وكان أصحاب الجاه والثراء يركبون"الشقاديف" - وهي أشباه المحامل . وأحسن أنواعها اليمانية، وهي مجلدة متسعة يوصل الاثنان منها بالحبال الوثيقة، وتوضع على الإبل، ولها ذراع قد حفت بأركانها، ويكون عليها مظَّلة فيكون الراكب مع عديله في وقاية الشمس المحرقة، خصوصاً وقت الهاجرة، ويجلس في مكان أو يتكيء دون أن يشعر بالتعب، ويتناول أحياناً مع عديله الطعام، أو يقرأ في مصحف أو يلعب شطرنج مع عديله إذا أحبا اللعب؛ للترويح من عناء السفر. أما أغلب المسافرين فكانوا يركبون فوق الأحمال، ويقاسون من ذلك كثيراً؛ لشدة الحر الذي يشبه السموم[٧٦].

– وبعد الانتهاء من الإجراءات يقلع الحجيج من "المبرز" إلى "عيذاب" عبر الصحارى المقفرة في حوالي ثمانية وثلاثين يوماً، إذ تقطع الرحلة من "الفسطاط" إلى"عيذاب" في حوالي ستة وخمسين يوماً نستدل ذلك من رحلة " ابن جبير" إذ سار من "الفسطاط" في السادس من المحرم سنة ٥٧٩هـ/١١٨٤م فوصل "عيذاب" في الثاني من شهر ربيع الأول من نفس العام[٧٧].

٧٤ابن جبير، أدب الرحلات، تحقيق كرم البستاني، دار صادر للطباعة، ط١، ١٩٠٠م،

[٧٥] جان كلود جارسان، قوص : ازدهار وانهيار حاضرة مصرية، ترجمة بشير السباعي، المركز القومي للترجمة، ط١، ١٩٩٧م، ص:٢٧

[٧٦] المرجع السابق، ص: ٣٦

[٧٧] المرجع السابق نفسه، ص: ٣٨.

– وبعد وصول الحجاج إلى عيذاب، كانوا ينتظرون أياماً صعبة؛ لعدم توفر الغذاء الضروري لحياة الإنسان، وإضافة إلى سوء أحوال الطقس، والطبيعة القاسية في هذا المرفأ، بعد تلك المعاناة التي كان يلقاها الحجاج في عيذاب، يركبون الجلاب إلى جدة، والجلاب هو نوع من المراكب التي كانت تسير في المحيط الهندي والبحر الأحمر، ومفردها جلبة وهي عبارة: عن قارب كبير أو قنجة مصنوع من ألواح، موصولة بأمراس ألياف النارجيل، وقد استعملها أهل مصر والحجاز واليمن في نقل الحجاج.

وينتقل جارسان إلى الحديث عن القبيلة التي كانت تتحكم في إدارة الأماكن المقدسة بالأراضي الحجازية، وتفرض سيطرتها عليه آنذاك، وقامت بتعيين موظفين مصريين بميناء عيذاب؛ لفرض ضرائب على الحجاج، ولهذا السبب طالب الناصر صلاح الدين الأيوبي، عشائر الأشراف بالأراضي الحجازية، بوقف ابتزاز الحجاج؛ بإلغاء الضرائب المفروضة عليهم من جانب الموظفين المصريين بميناء عيذاب، ويذكر المؤرخ الشهير المقريزي أن هناك أمراً صدر عام٥٧٧ هجرية، لخدمات قوص بالكف عن تحصيل الضرائب من الحجاج وكذلك عن سلع اليمن، إلا إن ذلك لم يتم تنفيذه، ويستشهد في ذلك بما تعرض له الرحالة الشهير ابن جبير شخصياً، بخضوعه للاستجوابات والتفتيش من رجال الجمارك، مما أثار غضبه وأعرب عن أمله في استعادة الطريق المباشر الذي يمر بالعقبة، ونصح بعدم استخدام طريق عيذاب، واستبداله بطريق بغداد، وقد يرى البعض أنه من الغريب أن تكون تلك العهود قد عرفت الجمارك وهي لم تتأثر بقرار صلاح الدين واستمر تحصيلها في جمارك الوادي بالمنيا وأخميم وقوص، ويفند جارسان غضب ابن جبير من اساءة موظفي الوالي وموظفي قوص خاصة، بأنهم أشاؤوا إلي حد ما استغلال ضرورة مرور الحجاج والتجار بهم، والمدينة تحيا على عائد ذلك[٧٨].

هكذا، قدّم جان كلود جارسان، وصفاً دقيقاً، لهذا الطريق، ومما جاء في هذا الوصف، يمكننا أن نلخص لهذه الاستنتاجات:–

١– تبارى الرحالة الغربيون والعرب، في وصف مكونات الطريق، قوص وعيذاب وصفاً دقيقاً.

٢– إن هذا الطريق تحولت له الأنظار، بعد قطع طريق الحج المصري، عبر السويس.

٣– استمرت شهرته وازدهاره، من القرن الخامس الهجري – الحادي عشرة من الميلاد، لمدة خمسة قرون متواصلة.

المبحث الثالث: وسائل المستشرقين لمحاربة الحج وطرقه وأهم النتائج والتوصيات

أولاً : وسائل المستشرقين

١. الطعن والتشكيك:

حاول المستشرقون الطعن في فريضة الحج والتشكيك فيها ، وحاولوا إلصاقها بالموروثات الجاهلية،ونذكر منهم المستشرق هانس فير Hans Wehr[٧٩]، الذي جاهد لتكريس شبهة التأثير النصراني

---

[٧٨] المرجع السابق نفسه، ص: ٤١.

[٧٩] هانز ڤير(Hans Wehr) مستعربألماني، ومؤلف أفضل قاموسبين اللغة العربية والألمانية. وِلد في مدينة ليبسكفي العام 1909وتوفى في مدينة مونسترفي العام .1981كان أستاذا للغة العربية في جامعة مونستربين الأعوام ١٩٥٧ و ١٩٧٤. تم ترجمة قاموسه إلى اللغة الانكليزية

واليهوديوالجاهلي، في صياغة ملامح الشريعة الإسلامية،والإيحاء بأن العديد من العبادات التيجاء بها الرسول الكريم ما هي إلاّ موروثات متأصلة لدى العرب زمن الجاهلية، فيكتب في" دائرة المعارف الإسلامية" : "ولكنه محمداً وجدالحجإلى الأماكن المقدسة متأصّلاً في نفوس العرب لايستطيع له دفعاً. وكان قصاراه أَلاّ يُبقي من بيوت العبادة إلاّ على بيت واحد جعلهبيت الله الواحد". وتحت عنوان "أصلالحجفي الإسلام" يقول الهولندي فنسنك "إنالوقوف في سهل عرفات من أهم مناسك الحج، فالحج بدون الوقوف باطل في الإسلام، وإنمايفسّر هذا الأمر بأنه أثر لفكرة جاهلية، وقد وازن "هوتسما " بين الوقوف وبين إقامةبني إسرائيل على جبل سينا. كما ربط – عمداً – بين ثوب الإحرام لدى الحجيج والثوبالمقدس عند قدماء الساميين وكهنة اليهود !! ونفس الحال طبقه على اختيار اللونالأبيض الذي يعد مقدساً في كثير من الأديان ولتحريم لبس الحذاء وتغطية الرأس والذيربطه أيضاً بالعادات السامية القديمة .!! ويقول المستشرق "بوهل F.Buhil"[٨٠] تحت عنوان" الجمرة": "ورمي الجمرات شعيرة أخذها الإسلام عن الوثنية فلم ينصّ صراحة في القرآن،ولكنها ذكرت في سير النبي وفي الحديث."

على جانب آخر ادعى أستاذ المستشرقينااليهودي المجري جولدزيهر Ignác Goldziher أن عبد الملك بن مروان منع الناس منالحجأيام محنة عبد الله بن الزبير رضي الله عنه،وبنى قبة الصخرة في المسجد الأقصى ليحج الناس إليها، ويطوفوا حولها بدلاً من الكعبة،ثم أراد أن يحمل الناس علىالحجإليهابعقيدة دينية، فوجد الزهري، وهو ذائع الصيت في الأمة الإسلامية مستعدًا لأن يضع لهأحاديث في ذلك، فوضع أحاديث منها حديث:"لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجديهذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى".

٢. بث الإشاعات المضللة:

وعن صعوبة الرحلة التي سلكها الرحالة ابن جبير في ذات التاريخ٥٧٨ هجرية وسجل أنها كانت مرعبة، وأكد أن اجتياز البحر من عيذاب إلى الحجاز، لم يكن دون مخاطر، وتأكد ذلك بعد هذا التاريخ بعامين فقط بكارثة مروعة، عندما غرقت أربع سفن جملة واحدة وأسفر الحادث عن وفاة١٣٠٠ حاج. ومن ناحية أخرى ألمح جارسان أن الحاج كان لا بد أن يذعن لشروط أصحاب السفن، وهذا أمر طبيعي، إذ أن الحجاج وبعد أن قطعوا تلك المسافات الطويلة، في رحلة شاقة جداً عبر الصحراء ويموت منهم الكثير، ومن وصل لميناء عيذاب يشعر بالفعل أنه وصل للأراضي المقدسة، بل وشارف على آداء الفريضة، فلا بد أن يستجيب لأي شروط لأصحاب السفن، كما ألمح أن أصحاب السفن، قلما كانوا يحرصون على أرواح المسافرين، الأمر الذي جعله ودون شك سبب حوادث الغرق، وهذا تحليل قد يكون مقبولاً في حدود ضيقة للغاية، وهي أن كان ثمن تلك السفن أقل بكثير من العائد الذي يحصل عليه

لينسج على منواله قاموس عربي . إنكليزي. ما زال قاموس هانز فيرمرجعًا لكل متعلمي اللغة العربية والألمانية، بجانب قاموس جوتس شراجله Götz Schregleالألماني . العربي وقاموسه الآخر الذي لم يكتمل عربي . ألماني (انظر: عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ١٨٧/٣).

٨٠فرانتس بُوهْل (بول 1351 – 1266) (هـ / ١٨٥٠ – ١٩٣٢ م) هو مستشرقدانيمركي، كتب في دائرة المعارف الإسلاميةوله كتاب في "جغرافية فلسطين القديمة .Geographie des alten Palästina "باللغتين الدانمركية والألمانية و كتاب "حياة محمد" (انظر: نجيب العقيقي، مرجع سابق، ١٩٨/٢).

أصحاب السفن من نقل الحجاج في الرحلة الواحدة، أو أنهم دون قلوب حتى يلقوا بقاصدي بيت الله إلى التهلكة.

٣. فرض الضرائب الباهظة:

يشيع المستشرقون، وجارسان واحد منهم، أن السلطات تفرض ضرائب باهظة، وتقوم بابتزاز الحجاج بإلغاء الضرائب المفروضة عليهم من جانب الموظفين المصريين بميناء عيذاب.

٤. التحصيل الجمركي:

يرى البعض أنه من الغريب أن تكون تلك العهود قد عرفت الجمارك، وهي لم تتأثر بقرار صلاح الدين واستمر تحصيلها في جمارك الوادي بالمنيا وأخميم وقوص، ويفند جارسان غضب ابن جبير من إساءة موظفي الوادي وموظفي قوص خاصة بأنهم أساؤوا إلى حد ما استغلال ضرورة مرور الحجاج والتجار بهم والمدينة تحيا على عائد ذلك.

٥. التفتيش والاستجوابات:

يخص الحجيج للاستجوابات والتفتيش من رجال الجمارك، مما يثير غضب الحجيج، مثل غضب ابن جبير.

القرصنة وقطع الطرق:

يذكر المستشرقون أن الطريق تعرض للقرصنة، من قبل القبائل التي تسكن الطريق، مثل البجاة والبشاريين، أو الغزاة ومنهم الفرنسيون كواقعة رينو دي شاتو.

ثانياً نتائج الدراسة:

١. مناسك الحج كانت بيئة خصبة، لتنكر الرحالة والمستشرقين.
٢. كشفت الدراسة مدى الارتباط العضوي بين الكنيسة والدول الاستعمارية وأجهزة المخابرات.
٣. ازدهار الاستشراق، مرتبط بوجود الدولة، ضمن الدول الكبرى، والدليل، الاستشراق البرتغالي والهولندي، كانا في مقدمة الدول الغربية، التي تناولت الشرق إبَّان عظمتهما، ولا وجود لهما الآن في خارطة الدول الكبرى، ولا على مجال الدراسات المهتمة بالشرق.
٤. من المستشرقين من نجح في تأدية دوره التجسسي، حتى وصل للحكم، كتوماس كيث الذي أصبح أول أجنبي غير مسلم يتولى إمارة المدينة المنورة.
٥. منهم من دخل إلى جوف الكعبة، وشارك في غسلها.
٦. ومنهم من ارتبط بزيجة في البلد الذي يقيم فيه، كالمستشرق الهولندي هورخورنيه.
٧. منهم وبالرغم من التجسس، إلأ أن اعترف بعظمة الإسلام كالمستشرق جورفييه كورتليمون.
٨. هنالك دراسة موضوعية، إلا إن موضوعية بعض المسشترقين، في أحكامهم ليست نابعة بدرجة من ضمائرهم الحية ، بل الواقع أن لدى الأوربيين مبدأ يقول: "إن ما يُبنى على الحقائق الموضوعية والمعلومات الحقيقية، من برامج سياسية أو إقتصادية هو ما نستطيع أن نتوقع أو نثق بنجاحه" .
٩. كشفت الدراسة أن بعض المستشرقين، من وقعوا في الأسر والعبودية.

١٠.كان التنافس شديداً بين الدول الاستعمارية، فلبليخ يعمل لصالح فرنسا، دست له المخابرات البريطانية السم فمات سنة ١٢٣٣هـ-١٨١٨م

١١.أن ميناء عيذاب استمر على حيويته وازدهاره، حتى في أوائل العصر الأيوبي، فهذا الميناء قام بدور نشط في تجارة البحر الأحمر طوال العصر الفاطمي .

١٢. التجار والحجاج يفدون إلى ميناء عيذاب مرغمين وليس مخيرين، وذلك بسبب اشتداد النزاع بين الفاطميين والسلاجقة، الذين كانوا أصحاب النفوذ ببغداد وقتئذ، ثم استيلاء الصليبيين على أيلة الواقعة على زاوية خليج العقبة سنة ٥١٠ هـ/١١١٦م.

١٣.ضاعف من أهمية عيذاب كميناء تجاري عالمي – دوره في التجارة العالمية العابرة بين الشرق والغرب في العصر الوسيط، حيث كانت السفن المحملة بسلع الشرق الأقصى وعالم المحيط الهندي بجانبيه الإفريقي والعربي، تنتهي إلى عيذاب بمعرفة تجار الكارم. الذين قاموا بنقل التوابل والزعفران وغير ذلك من منتجات الشرق إلى دول الغرب عبر الأراضي المصرية.

١٤.مدينة عيذاب لها نظام خاص بها، يختلف في كينونتها السياسية عن المدن المصرية الجنوبية وذلك للآتي:-

أ. حكمها مشاطرة بين البجاة والسلطنة المملوكية، فلها حاكم من قبل ملك البجة، وآخر من قبل سلطان المماليك.

ب. سحنة ولغة أهلها.

ت. قبائل البجة والنوبة دائماً ما كانوا يدخلون في أحلاف ضد حكام مصر المتعاقبين.

١٥. عمق وغزارة ميناء عيذاب، وخلوها من الشعاب المرجانية، التي يمتليء بها البحر الأحمر، كانت من أكبر الأخطار التي تعترض الملاحة في هذا البحر. لذلك كان البحارة والتجار يفضلون الرسو فيها عند تقدمهم من عدن وعند رحيلهم منها .

١٦. الميناء يواجه الأراضي المقدسة مباشرة، دون سائر الموانىء المنتشرة على الضفة الغربية من ساحل البحر الأحمر، مما يقلل الوقت والمسافة، والتكلفة.

١٧. أقصى عرض للبحر الأحمر يبلغ، ٣٩٨ كليومتراً، عند خط عرض ١٨ درجة شمالاً، وأقل اتساع يبلغ، ٢٦ –٢٩ كيلو متراً، عند مضيق باب المندب.

١٨. يضيق البحر الأحمر عند عيذاب حلايب ليشكل ثاني مضيق، ويبلغ ٢٥٠ كيلو متراً، هي المسافة بين جدة وعيذاب. مع العلم أن متوسط عرض البحر الأحمر يبلغ ٢٨٠ كيلومتراً.

١٩. المسافة بين جدة وميناء بورتسودان، تبلغ ٢٩٦ كيلومتراً.

توصيات الدراسة:

١. نوصي بكشف التعاون الكنسي والمخابراتي للأجيال الصاعدة ولعامة المسلمين.

٢. كشف حقيقة المتنكرين من الرحالة والمستشرقين.

٣. يوصي الباحث الباحثين والمؤرخين ومراكز البحث ودور النشر، بإجراء المزيد من البحوث حول ميناء عيذاب التاريخي.

٤. يوصي الباحث – بعد تسوية مسألة حلايب– حكومة السودان بإعادة تشغيل وتأهيل ميناء عيذاب حلايب لكثير من الميزات التفضيلية التي ذكرت في النتائج.

مراجع الدراسة:

١. أحمد عبد الحميد غراب، رؤية إسلامية للاستشراق، سلسلة كتاب المنتدى، إصدارات المنتدى الإسلامي، لندن – المملكة المتحدة.

٢. أنور محمود زناتي، زيارة جديدة للاستشراق، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة – مصر، ط١.

٣. بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار، تحقيق وتقديم وتعليق: علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط٤، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٤. ابن جبير، أدب الرحلات، تحقيق كرم البستاني، دار صادر للطباعة، ط١، ١٩٠٠م.

٥. جان كلود جارسان، قوص : ازدهار وانهيار حاضرة مصرية، ترجمة بشير السباعي، المركز القومي للترجمة، ط١، ١٩٩٧م.

٦. جورفييه كورتليمون، رحلة إلى مكة، ترجمة أحمد ايبش، إصدارات الدار الوطنية، أبو ظبي – دولة الإمارات – العربية، ط١، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

٧. الحاج يونس المصري، رحلة فارتيما، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر – القاهرة، ط١، ١٩٩٤.

٨. روبير متران، سلسلة الثقافة المقارنة – الاستشراق، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق – بغداد، ١٩٨٧م.

٩. سنوك هورخرونيه . صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري. ج٢. ترجمة محمد بن محمود السرياني، ومعراج بن نواب مرزا ومراجعة محمد إبراهيم أحمد علي مكة المكرمة: نادي مكة الثقافي الأدبي ، ١٤١٠-١٩٩٠م.

١٠. السنيدي، صالح بن محمد: رحالة أسباني في الجزيرة العربية، دار الملك عبدالعزيز، الرياض- السعودية، ط١ ١٤٢٩هـ.

١١. عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، دار الملايين، بيروت – لبنان، ط٣، ١٩٩٣م.

١٢. عبد الرحمن عميرة، الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وتضليل الاستشراق، دار الجيل،لبنان– بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

١٣. عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، روايات غربية في شبه الجزيرة العربية، دار الساقين بيروت – لبنان، ط١، ٢٠١٣م.

١٤. عبد الرحمن الشيخ، رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة – مصر، ط١، ١٩٩٤م.

١٥. قاسم السامرائي، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، دار الرفاعي، الرياض، المملكية العربية السعودية، ط١ ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١٦. القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب .

١٧. لوثروب ستودارد ،حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض، تقديم أشكيب أرسلان، دار الفكر، بيروت – لبنان، د. ط د.ت.

١٨. ليون روش، اثنتان وثلاثون عاماً في رحاب الإسلام، ترجمة، محمد خير محمود البلقاعي، جدوال للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠١١م.

١٩. محمد أحمد الحناشي، كورتليمون ورحلته، دار التراث، الرياض – المملكة العربية السعودية، ط١، ٢٠٠٢م.

٢٠. المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية، اختيار وتهذيب وفهرسة: محمد بن حسن عقيل موسى الشريف، دار الأندلس الخضراء، جدة – المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٢١. محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، ط١٦،: ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

٢٢. مصطفى مسعد – المكتبة السودانية العربية – مطبوعات جامعة القاهرة بالخرطوم – الطبعة الأولى – ١٩٧٢م.

٢٣. مراد هوفمان، الإسلام كبديل، ترجمة عادل المعلم، دار الشروق، القاهرة – مصر، طا، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .

٢٤. نجيب العقيقي، المستشرقون، دار المعارف، القاهرة – مصر. ط٥، ٢٠٠٦م.

٢٥. نواف عبد العزيز الجحمة – "السودان الشرقي في عيون الرحالين المغاربة، ميناء عيذاب نموذجاً " - السودان وإفريقيا في مدونات رحالة الشرق والغرب ، أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمين بالخرطوم، فبراير ٢٠٠٦م – دار السويدي للنشر التوزيع – ابوظبي -٢٠٠٦م .

٢٦. نيبور، الرحلة العربية للدنماركي نيبور، اهنس كريستين فنيك، إصدارات مركز الجزيرة للدراسات،ط١.

٢٧. ابن الوزان الزياتي – وصف إفريقيا – ترجمة عبد الرحمن حميدة – مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة -٢٠٠٥م